

## من أعلام طرابلس الغرب الشيخ الفيتوري بن محمد حسن الطشاني

الدكتور: محمد عبد الله سلامة

كلية الآداب - جامعة طرابلس

### توطئة:

إنّ قلة اهتمام المغاربة عموماً بتدوين آثارهم، جعل كثيراً من علمائنا عُمرًا في هذه الدنيا، ولعلّ فيما يقوم به قسم اللغة العربية بكليتي اللغات والآداب؛ من احتفاءٍ بشخصيات علمية، لعلّه يكون فاتحة اهتمام بتراجم أعلامنا الليبيين، وإنّ من الأعلام المغمورة الشيخ المرّي، والمؤدّب الربانيّ سيدي الشيخ الفيتوري حسن رَحْمَةُ اللَّهِ. جاء في الأثر: «إنّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»<sup>1</sup>، ورويعن أحمد بن حنبل، أنه ذُكر عنده أحد العلماء الصالحين العاملين، وكان مُتَكِنًا من عِلَّة، فاستوى جالسًا، وقال: لا ينبغي أن يُذكر الصالحون فيتُكأ<sup>2</sup>؛ لهذا وغيره حتّى العلماء على وجوب إطرأ أهل الفضل وحملة القرآن الذين هم شمس هذا الدين ونجومه:

خَبَتْ مَصَابِيحُ كُنَّا نَسْتَضِيءُ بِهَا  
وَطَوَّحَتْ لِلْمَعْيَبِ الْأَبْجُمِ الرَّهْرُ<sup>3</sup>  
وَاسْتَحْكَمَتْ عُزْبُهُ الْإِسْلَامَ وَانكَسَفَتْ  
شَمْسُ الْعُلُومِ الَّتِي يُهْدَى بِهَا الْبَشَرُ  
تُحَرِّمُ الصَّالِحُونَ الْمُقْتَدَى بِهِمْ  
وَقَامَ مِنْهُمْ مَقَامَ الْمَبْتَدَا الْحَبْرُ

1- انظر: سنن أبي داود 5/ 290 تحت رقم (4843).

2- انظر: صفة الصفوة 2/ 320.

3- انظر: الفوائد الزهديات 2/ 58، 59.

الشيخ الفيتوري حسن رَحْمَةُ اللَّهِ يُعَدُّ من مصاييح الدُّجى؛ إذ القرآن الكريم رائده، حاكاه قولاً وعملاً، اشتغل به في حِلِّه، وأنس به في ترحاله وخلوته، ولما علم أنَّ شفاء الصدور في طاعة الله وتلاوة كتابه، وتدبُّره، والعمل به وبسنة رسوله ﷺ، وظَّف جوارحه لما به أمر، فكانت حركاته وسكناته من الله، ومصروفة إليه: الله معي، الله ناظر إليّ، الله محاسبي، فأيقن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

حمل لواء العلم في الزوايا القرآنية ثلثة من العلماء الزهاد العباد التقاة، الذين تحزروا: «من تبعية المرتبات الرسمىة، فهو الذي مكَّتهم من القيام بحق الكلمة بأمانة وحرية، إنَّ هذا التعليم هو الذي كان سائداً في أنحاء ليبيا من مساجد وكتاتيب، في تاجورا وطرابلس والزاوية والجبل الغربي وغدامس وغات وسبها ومرزق وهون وسوكنة وزليطن ومصراتة وإجدابيا وأوجلة وحالو والكفرة وبنغازي والبيضاء والجغبوب»<sup>1</sup>، ربوا طلابهم قبل أن يعلموهم، هذبوهم قبل أن يظهروهم ويقدموهم للعامة، منهم الشيخ: علي الطشاني، والشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري، وفي العقدين الأخيرين لمع اسم كان نُدره، وظاهرة يصعب أن تتكرَّر في الزمن القريب، ألا وهو سيدي الشيخ الفيتوري حسن رَحْمَةُ اللَّهِ، ولقد عرفتُ الشيخ معرفة شخصية قريبة، قرب الولد من والده، فعلمتُ أنه ممن سخَّر قُوته وقُوَّته، وأهله وذُرِّيَّته، ووفَّقهم لخدمة الدين ومصادره الشريفة النفيسة، التي في مقدمتها القرآن الكريم وعلومه وآلاته.

عرفتُ الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ معرفة شخصية قريبة، قُرب الطالب من أستاذه، والولد من والده، فعلمتُ أنه من القلائل القابضين على دينهم في هذا الزمان،

<sup>1</sup> - مجلة الوثائق والمخطوطات، العددان الثالث عشر والرابع عشر، 1997، 1998م، من بحث (العلم والعلماء بأوجلة) ص: 114.

ولمست استبراده هذا الجمر القابض عليه، وتلذذه بقبضه، ومصابرتة وجلده. استوحش الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ - كما لاحظتُ- في آخر حياته من الناس، فقد أراد الانفراد والوحدة؛ لمناجاة ملك الناس وإله الناس. قال الإمام الغزالي: «ولا ينقلح حبّ الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس، والهَرَب من مخالطتهم، وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم»<sup>1</sup>، وليعذرني عاذلي فأنا كنتُ شاهداً حاضراً، ناظراً سامعاً، مُتَعَجِّباً مذهولاً، أيكون في ذا الزمن رجلٌ كهذا الرجل؟! سَخَّر قُوته وقُوته، وأهله ودُرَيْتته، ووقفهم لخدمة الدين ومصادره الشريفة النفيسة، التي في مقدمتها القرآن الكريم وعلومه، والفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه وفنونه، واللغة بشتى فروعها وأبوابها وأقسامها.

#### اسمه ونسبه<sup>2</sup>:

هو الشيخ الفيتوري بن محمد بن أحمد بن حسن، الطرابلسي، التاجوري<sup>3</sup> مولداً وسكناً ونشأة، ووفاءً، المغربي أصلاً، والشريف نسباً، والملقب بالشيخ الفيتوري أبو شوفة، أو هكذا يعرفه جُلّ أهل بلده، ترجع أصول العائلة إلى الساقية الحمراء بالمغرب الأقصى، ولد الشيخ الفيتوري في تاجورا محلة الحميدية بشارع الشيخ سيدي علي الطشاني، وذلك سنة 1911م على وجه التقريب، وعائلته متألفة من سبعة أولاد؛ اثنان من الذكور، هما (الحسن - وهو الأكبر من أولاده - والفيتوري)، ولكن

<sup>1</sup> - إحياء علوم الدين 4/ 433.

<sup>2</sup> - هذه الترجمة مستقاة من أفواه الرجال؛ أبناء الشيخ وأحفاده وأحبابه وتلاميذه.

<sup>3</sup> - نسبة إلى مدينة تاجورة، فقد جاء في معجم البلدان الليبية ص: 75-77: أنّ تاجورة على وزن (فاعولة) بلد من أعمال طرابلس القديمة، تقع جنوب شرقها، لها دور في الثورات على النصارى، ومنها ثورتهم على فرسان القديس يوحنا، وكذلك على حكم بعض الولاة الظلمة، وهي مدينة عامرة منذ الفتح الإسلامي، وعندما أحسن أحد ولائها بقلّة سكانها نقل إليها عرباً من أرض عبد رب، وهم من بني تميم، وقد عمّرها واختطّها ومدّنها حميد بن جارية في منتصف القرن السادس الهجري، ولعلّ كتابة كثيرين لها بألف بعدها همزة (تاجوراء) خطأ، فإذا كانت المدينة تاجوراء - كما هو مستعمل اليوم - فالنسبة إليها تاجوروي، وقد جاء كتابتها (تاجورا) أيضاً، قال العياشي في رحلته 143/1: « وانحاز المسلمون إلى تاجورا وجبال غريان ومسلاتة».

الحاج محمداً والد شيخنا فقد ابنة الأكبر الحسن، الذي سقط شهيداً في معركة الهاني، وهو في مقتبل عمره في الثامنة عشرة على وجه التقريب، ترك زوجة بعده لم تعش طويلاً بعد استشهاده، وقد كان شيخنا الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ وقتها رضيعاً، ولتأثر الأمعلى فقد ابنتها فقد جفّ لبنها، فأصاب شيخنا رَحِمَهُ اللهُ ما أصابه من قلة التغذية. للشيخ خمس أخوات، وهنّ أكبر منه سنّاً، وكنّ يتصلن به، ويجلنّه ويقدّرنّه، ويسألنّه عن أمورهنّ الأخروية، ولطالما ذكّرنيّ بأخوات بشر الحافي وحالهنّ مع أخيهنّ بشرٍ رحمهم الله جميعاً<sup>1</sup>، في تقواهنّ وعبادتهنّ، فلقد رأيتُ أغلبهنّ، وعاصرتهنّ، وهنّ يصلين معه؛ فرضاً ونفلاً، صائمت قانتات عابدات ساجدات، وما خبر أسماء بنت معاذ الحسانيّ ببعيد، عابدة زاهدة، فإذا تتبعت نسبها وجدتها تجتمع مع أخوات الشيخ الفيتوري حسن في الأصل المغربيّ؛ الساقية الحمراء<sup>2</sup>، ولعمري أنّ شيخنا رَحِمَهُ اللهُ كان يأنس بأخواته، ولقد كان كثير التآثر عند خبر وفاتهنّ؛ واحدة تلو الأخرى، فسبّغته إلى دار القرار. شيخنا رَحِمَهُ اللهُ متزوج، وله من الأولاد اثنا عشر ولداً، سبعة منهم ذكور، وجلّ أبنائه ممن أكمل دراسته في المجال الشرعيّ واللغويّ، وأنا أسردهم لك: الشيخ محمد ابنه الأكبر، خريج الجامعة الإسلامية بالبيضاء، والحامل للإجازة العليا (الماجستير) في العلوم الشرعية، وهو مدير معهد الإمام مالك بن أنس الشرعي سابقاً، وأستاذ الفقه وأصوله في الجامعات الليبية، ويليّه الشيخ الهاشمي أستاذ العلوم الشرعية بجامعة طرابلس كلية الآداب، والمدرّس بالحلقات التدريسية المقامة في زاوية الطشاني ومسجدها الجامع، والشيخ أبو عجيبة خطيب ومدرس، وفقهه وواعظ، والحاج حسين حربي وفلاح مُتّقن ولم يكتب له إتمام تعليمه، والشيخ عبد الحفيظ مدرّس للقرآن، وإمام راتب مكان والده في جامع سيدي علي

<sup>1</sup> - وبشر الحافي هو من عباد بغداد وزهادها، وله ثلاث أخوات كلهن زاهدات عابدات، منهنّ زبدة القائلة: أثقل شيء على العبد الذنوب، وأخفه عليه التوبة، فماله يدفع أثقل شيء بأخف شيء؟! انظر: صفة الصفة 524/2 - 526.

<sup>2</sup> - انظر: مجلة الوثائق والمخطوطات، العددان الثالث عشر والرابع عشر ص: 125، 126.

الطشاني، والشيخ عبد الرزاق مدرس للقرآن الكريم، والأستاذ عبد المجيد أصغر أبنائه مدرس للتعليم الثانوي، فظاهر الحال -وما ستلحظه في الترجمة- يوحى أن البركة حلّت في ذريته، وزيادة على ذلك فإن أحفاده سلكوا طريق الجدّ، فحفظوا القرآن الكريم على يديه، وداوموا حضور حلقاته التدريسية في شتى العلوم.

### حياته وكسبه:

لقد كان الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ - كما هي عادة العلماء والدعاة - فقيراً في بداية حياته، فوالده لم يكن من الموسرين، فلم يورثه كثير مال؛ لذا فقد كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ يكّد ويتعب؛ ليوفرّ لأسرته ما يحتاجونه، شيخنا لم يكن راكناً منتظراً من السماء أن تمطر ذهباً، فقد اشتغل بالزراعة، فهو يحترفها، ويجلّها، ويثقّقها، فهي مصدر رزقه هو وأولاده، فيفضلها أكمل تحصيله العلمي، من قرآن وفقه ولغة، وغيرها، وكذلك أتمّ تعليم أبنائه. نشأ الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ في عائلة فقيرة، كما أسلفنا، فقد كان أبوه فلاحاً، لا يملك من حُطام الدنيا إلا الكفاف، وقد ورث الشيخ الفيتوري من أبيه مهنة الفلاحة، فأصبح مزارعاً فلاحاً، يحبّ زراعة الأرض، حتى أصبح مضرب مثل في قريته، من حيث إتقانه، وحبه للعمل، وتفانيه فيه، واهتمامه بالأرض، وإصلاحها؛ لزراعتها، فعضّ على نفسه وأولاده؛ لذا فقد كان اعتماده -بعد ربه- على نفسه، ولا يقولنّ قائل: حُبّ الدنيا والآخرة لا يجتمعان؟ لا، بل هما صنوان لا يفترقان، ولا نجاح لإحدهما دون الأخرى، ألم يقل الحقّ جل شأنه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] وقد اتبع هذه السنّة أتباع نبينا، فأروه نهجا قويمًا، لا إفراط ولا تفريط فيه، فهذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان يقول: «أخِرُ دُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَأَعْمَلُ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا»<sup>1</sup>. كان الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ يستأجر العمّال؛ ليصلحوا له

<sup>1</sup> - انظر: بغية الباحث عن زوائد مسند ابن الحارث 2/ 983.

الأرض ويزرعوها، خاصة في فترة وجود أبنائه بعيدين عنه، منشغلين بالدراسة، ولا يتوانى في بذل الأجرة الجزية لمن يستأجره، ولكم كان سخياً معهم، مِعْطَاءً.

### ابتلاء وامتحان:

لقد بارك الله له في جسده وحياته ونسله؛ إذ كان هو وحيد والده من الذكور بعد وفاة أخيه الحسن، فالشيخ قويّ البنية، بقي فتياً أسداً، شاباً في صورة كهل، فلم يُصَلِّ يوماً جالساً ولا مُتَكَبِّراً قط، لا في فرض ولا نفل، إلى أن ارتحل، ولعلّ ذلك أنه رَحِمَهُ اللهُ حفظ جوارحه عن الحرام في الصغر فحفظها الله له في الكبر، فإنّ من حفظ الله للعبد أن يحفظه الله في صحّة بدنه وقوته وعقله وماله، وخاصة إذا كان ممن حفظ القرآن، فهذا أبو الطيب الطبري - قد جاوز المائة سنة، وهو ممتّع بعقله وقوته - وثب يوماً من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبةً شديدةً، فعوتب على ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر<sup>1</sup>. نشأ الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ وترعرع، وكبر سويّاً من الناحية الخلقية، معافى في حواسه جميعها، مؤدبها ومصرفها إلى ما خلقت من أجله، ولكن يأبى قدر الحق إلا أن يُبتلى الشيخ في جسمه، فقد جاء في الأثر: «...عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأُمَّمَلُ فَأَلْأَمَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خَفَّتْ عَنْهُ، وَلَا يَزَالُ الْبَلَاءُ فِي الْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ فِي الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»<sup>2</sup>، ولقد كان ما أخبر به الصادق المصدوق عليه السلام مع كثير من السلف وخلفهم هم الصالحين أيضاً، فيصاب الشيخ بمرض في عينيه (الماء الأزرق) يسافر على إثره إلى الخارج<sup>3</sup>؛ لإجراء عملية جراحية في عينيه، فكانت الوجهة إلى إسبانيا، وذلك في أكتوبر 1984م، يرافقه ابنه الشيخ عبد الرزاق، وتجرى له العملية، وتكون نسبة

<sup>1</sup> - انظر: تفسير ابن رجب 575/1، 576.

<sup>2</sup> - انظر: مسند أحمد 1/ 370 و374 و387، والزهد للإمام أحمد 1/133.

<sup>3</sup> - رواية عن ابنه الشيخ عبد الرزاق.

نجاحها عالية، ويخرج الشيخ من المشفى، في سكنه في العاصمة الإسبانية مدريد كان الشيخ يترقب وقت الصلوات، ومنها الفجر، وفي وقت دخول وقت الصلاة كان الشيخ يؤذّن من النافذة، بصوت منخفض، وكان يُصرّ على ذلك، فكان يُخرج رأسه، الأمر الذي جعله يتعرّض لتيار هوائي شديد، وليس بخافٍ عنك قوّة نسمة الهواء، وشدة تياره في الصباح الباكر، ولكن في وقت الفجر وخروج الشيخ من النافذة، وأذانه للصلاة كما أسلفنا، ولاهتمام الشيخ الفيتوريّ وهيامه وغرامه بالعبادة، وبعمادها وهي الصلاة، فيفتح نافذة الحجرة بين الفينة والأخرى، متلهّفاً لوقت الفجر، فيتعرّض لتيار هوائي شديد، أصاب العينين، فتنزفان، وتذرفان دماً بعد الدموع، ناهيك بتعليمات صارمة وتقييدات هامة أمر بالتزامها رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَيْئَةِ نومه، وقيامه وجلوسه، وصلاته، ووضوئه، فيُخبر بعد الكشف والتحليل، والعودة إلى الطبيب المعالج، أنّ العملية آلت إلى انتكاس وفشل، وهنا لك أن تتصوّر، وتخمن ردة فعله، كيف ستكون؟ وما قوله على حاله؟ فيردّ بعبارة بليغة، ملؤها الإيمان والاحتساب، والصبر واليقين، قال رَحْمَةُ اللَّهِ: «وجدت الصلاة أفضل من النظر»، وكأنه يحاكي أبا الدرداء رضي الله عنه في قوله: «النَّاسُ يَكْرَهُونَ الْفَقْرَ، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَيَكْرَهُونَ الْمَوْتَ، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَيَكْرَهُونَ السَّقَمَ، وَأَنَا أُحِبُّ السَّقَمَ؛ تَكْفِيرًا لِخَطَايَايَ، وَأُحِبُّ الْفَقْرَ؛ تَوَاضُعًا لِرَبِّي، وَأُحِبُّ الْمَوْتَ؛ اشْتِيَاءًا إِلَى رَبِّي»<sup>1</sup>. لقد كان من العلماء الصّابرين قولاً وعملاً، الفرحين بالمرض والشدة؛ لأجل أن فيه كفارة الذنوب. إن الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء عند الرخاء؛ من الأمور التي قلما يُزرق المؤمن المحافظة عليها، والامتثال إليها، والعمل بها، وكما أن للبنيان أركاناً وقواعد لا يستقرّ ولا يثبت إلا بهنّ، كذلك الحال بالنسبة للإيمان، فمنها: التوكّل على الله، والتسليم لقضائه، والتفويض إلى الله، والرضا بقدره<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: تنبيه الغافلين ص: 252.

<sup>2</sup> - انظر: قوت القلوب ص: 8/2.

إنَّ لكل عالم أعداءً وخصوماً، وهم- إنَّ أرذتَ الحقَّ- ما يجادلون إلا أنفسهم وما يشعرون، فقد علم الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** منذ أن اختار هذا الطريق أنَّ به أشواكاً، وأنَّ اللجنة حُقَّتْ بالمكاره، وأنَّ العلماء الأتقياء لا بُدَّ من أن يلقوا ما لاقاه سلفهم، من لدن دعوة المصطفى ﷺ إلى أن ينفخ إسرافيل في البوق، فتجد بين الحين والآخر من بعض عوام الناس استهزاءً وازدراءً لما يفعله الشيخ، وتجد رفضاً لما يُفْتِي به، ويأمر به، ولكنَّ ممَّا عاشرته، وسمعتُه، ورأيتُه من شيخنا **رَحْمَةُ اللَّهِ**، أنه حاكى الآية الكريمة، فتمثَّلها خير تمثيل: ﴿يا بُنَيَّ أقم الصلوة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور﴾ [لقمان: ١٧]، فالحقَّ أنَّ الشيخ الفيتوري **رَحْمَةُ اللَّهِ** لم يكن ينصت أو يستمع إلى ما يُقال، ولا يهادن في دين الله، وهذا يضاف إلى رصيده في الصبر والتحمُّل؛ لأجل إعلاء الحقِّ وإظهاره، وإقامة شرع الله في أرضه، وهو طريق كثيرٍ من الصالحين.

ومن صبره وتحمُّله في ذات الله ما تعرَّض له شيخنا **رَحْمَةُ اللَّهِ** في حياته، من وشاية البعض: أنَّ هناك من يتردَّد على الشيخ من جماعات دينية متشددة، وأنها مصنفة من قبل الجهات الأمنية حينها على أنها مجموعة (زنادقة)، وهذا المصطلح شاع وانتشر في فترة الثمانينات والتسعينات، فاقتيد الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** من داره فترة الظهيرة بعد رجوع الطلاب إلى سكناتهم ليستريحوا، فتوجَّهوا به إلى حيث لا يعلم، وصعدوا به الدَّرج، إذ المبنى كان عالياً، كما أخبرني بذلك **رَحْمَةُ اللَّهِ**، وعندما وصل بدأوا في استجوابه، فأخذوا منه بيانات كاملة، ثم سألوه عن الطُّلاب الذين يتردَّدون عليه، وطلبوا منه أن يمدِّهم بمعلومات عنهم، فهل رأى من حالهم ما يدعو إلى الريبة الأمنية، والشكِّ في بعض سلوكياتهم؟ فأجابهم بأنه لا يرى، ولا يعلم عمَّا يريدون شيئاً، وأنه يُدرِّس من يأتي إليه، ولا يطلب أوراقاً شخصيةً ثبوتيةً، أو ملفات علمية، أو صوراً شخصية من الطلاب، والحقَّ أنَّ لهم الشكر أن ردُّوه سالماً إلى محلِّه وسكنائه، وعلى هذا فقس من المضايقات والتساؤلات، ولكأن تتساءل -كما كنتُ أسأل نفسي-:



من دهم عليه، ومن أوشى لهم بالتوقيت الذي ينفردون فيه بالشيخ؟! أقول لكل أولئك ولمن يقتفي أثرهم ويتحسّر على ماضيهم التّليد، وقد يُطلق لنفسه العنان فيمدح طريقتهم، ألا تقف وتزدجر بالحديث المرويّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام، عن ربه عز وجل قال: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله، ما تردّدت قبض نفس مؤمن، أكره مساءته ولا بُدّ له منه...»<sup>1</sup>، ألم تسمع -يا هذا- بقول الإمامين الجليلين أبي حنيفة والشافعي -رضي الله عنهما- اللذين قالوا: «إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي»<sup>2</sup>، فكُنْ متّعظاً بالآثار السابقة، فأستعِذ بالله أن تكون ممن صدق فيهم قول ابن عسّاك رحمه الله: «اعلم يا أخي -وقفني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق ثقاته-: أن لحوم العلماء مسنومة، وعادة الله في هتك أسنار منتقصيهم معلومة، وإن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب والانتقاص ابتلاه الله قبل موته بموت القلب»<sup>3</sup>. ومن ابتلاء الشيخ الفيتوري أيضاً فقدّه لأكبر بناته، فقد توفيت ابنته قبله، ولكنه صبر واحتسب، بل باشر عمله التدريسي والدعويّ، قائلاً: إن ابنته انتقلت إلى حياة أبدية، ونحن الآن نستمرّ في حياتنا الوقتية، وفي عطائنا، ففي اليوم التالي لانتقالها إلى بارئها رحمها الله درّس الشيخ رحمه الله في زاويته، واستمرّ في حلقاته التدريسية، وكانت رحمها الله قد انتقلت إلى جوار ربها قبل وفاة أبيها بسنة تقريباً، ولقد تألم رحمها الله لفراقها، ولكنه رأى بعين البصيرة أن الدنيا متاع، فعش ما شئت فإنك ميت، وأحبّ من شئت فإنك مفارق.

#### أخلاقه وسماته:

كان الشيخ الفيتوري رحمه الله قولاً للحقّ، ملازماً له، رافداً للفقير وذوي الفاقة، كريماً جواداً، ويشهد لذلك ما يرويه عنه الملازمون له من أبنائه وتلاميذه، فقد كان

<sup>1</sup> - انظر: نوادر الأصول للترمذي 2/784، تحت رقم (899).

<sup>2</sup> - انظر: نظم الدرر 154/9، والمقاصد الحسنة ص: 757.

<sup>3</sup> - انظر: التبيان في آداب حملة القرآن ص: 26، مواهب الجليل 4/1.

الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ معروفًا في بلدته أنه كان يُرَدِّف معه إلى الحجِّ جماعات ووحدانًا من أهل بلده؛ لأسبابٍ منها: أنّ بعضهم ليس له كبير علم وفقه ودراية بشعائر الحجِّ والعمرة، أو كان ممن ناله نَصَبٌ وفقْر وفاقَة، ولم يرو أحدًا أنه أخذ على ذلك أجرًا مادّيًا دنيويًا، بل الأمر على غرار ما قد يتبادر إلى أنفسنا الأمانة بالسوء؛ إذ هو ينفق عليهم - أي على الفقراء منهم - كما ينفق على أهله المصاحبين له؛ بل أزيد من ذلك أنه ضامنٌ لمن ضاع ماله، وكأنه شركة تأمين إسلامية كبرى، فيعوض من تعرّض لسرقة مال أو ضياعه، فيطّيب خاطره ببذل ما عنده؛ ليرجع الحاجُّ أو المعتمر إلى أهله وذويه بما وعدهم به من هدايا وعطايا<sup>1</sup>. يقول الشيخ صالح ددق أحد تلاميذه<sup>2</sup>: رافقته لأداء مناسك العمرة - وكان برفقته ابنه الشيخ عبد الحفيظ - لم أره قطّ في تلك الأماكن الشريفة المقدّسة إلا مُنْفِقًا على الفقراء، مُقَرَّبًا لهم منه مجلسًا، مقاسمًا لهم طعامه وشرابه، وماله، فإذا كان هذا في ترحاله وسفره رَحْمَةُ اللَّهِ فِي بَيْتِهِ وَمَسْتَقَرِّهِ وَمَسْكَنِهِ؛ إكرامه لضيّفانه أكثر وأغزر، فلقد وقّف أهله لخدمة طلبة القرآن والعلم، للقيام على شؤونهم، فخصّص لهم مكانًا من مسكنه؛ ليستقروا فيه، ولا تنس أنّ لهؤلاء الطلاب نصيبًا من ماله يُجرّبه عليهم بين الحين والآخر، خفية؛ لكي لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ولولا أني لمسْتُ ذلك الأمر، وتصيّدْتُ هذه المعلومة تصيّدًا لما علمتُ الأمر، ولا تحقّقته، وكانت هناك حلقات علم - كما سنين لاحقًا - تُقام في المسجد، شيخها ورائدها هو رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وتأتي العائلة الكريمة إلا أن تُكرّم العلم وروّاده، وتلبي للشيخ رغبته في إكرام طلاب العلم، فيأتيك الطعام والشراب، ليس شيئًا يسدّ الرّمق، وإنما هو شيء يُشبع ويُغني، وهنا لا بدّ لنا من الشناء والدعاء لأهل بيت الشيخ، فلا بدّ لنا من الشناء والدعاء لأمّ عادل أمّها الله بالصحة والعافية، وهي زوج الشيخ عبد الحفيظ بن الفيتوري، وقد كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ يقطن في بيته القديم

<sup>1</sup> - رواية عن ابن الشيخ الحاج حسين.

<sup>2</sup> - رواية عنه.

الملاصق لبيت ابنه عبد الحفيظ، وقد التزم عبد الحفيظ بوالده، ووقّف أولاده لخدمة الشيخ، وبقي الشيخ في كنفه إلى وفاته، ونعم ابنه عبد الحفيظ بصحبة والده، فنال بركته، وأمّ عادل كانت -ولازالت- امرأةً كريمة، مفضّلة، جوادة، لا تملّ ولا تكلّ، ولا تضجر من كثرة زوّاد الشيخ وطلّابه، وطلّابه لهم، كما أنّها عمّدت بناتها وأبناءها على هذا الأمر، فجزاهم الله -أهل بيت مؤمنين- عن الإنفاق خير الجزاء: «فאלلهم أعط منفقاً خلفاً»<sup>1</sup>.

إنّ من سمات الشيخ رحمه الله تفقّده لطلّابه وأحوالهم، فهو سائلك -لا محالة- في بداية قراءتك عليه عن حالك وشغلك، ومصدر رزقك، فإذا كنت في ضنك وسّع عليك، وأصرّ على التوسيع عليك، وأخّ في ذلك، وربما عرض عليك أن يُعطيك معونة مالية تكفيك طيلة فترة مكثك في دراستك عليه، ولكم عرض على طلّاب له أن يعينهم على نوائب الدهر<sup>2</sup>، وأن يُسهم في تزويجهم، ولا تتعجّب فقد يعطيك ما تمهّر به التي خطبتها من الذهب والحلي، واحذر غضبه إن لم تكن كيّساً فطناً في رفضك لعرضه، الشيخ الفيتوري رحمه الله -أيها القارئ- هو أبّ، وتلاميذه له أبناء، ولطالما عرض الشيخ رحمه الله على آباء تلاميذه عنده أن يدفع لهم أجرة عامل يُستأجر لتأدية عمل كُلف به ذلك الطّالِب من قبل أهله؛ ضنّاً بوقته، وحفاظاً على استمرار الطالب في دراسته، ومن حصل معهم هذا الشيخ النفاقي الصادق الزروق<sup>3</sup>، وكذلك كان الشيخ يرى نفسه أبّاً لتلاميذه فيقف في صفّهم، ويكون حصناً لهم من سطوة آبائهم، كما حصل للشيخ عبد الكريم بن بنور قبوق<sup>4</sup>، عندما وقف الشيخ في وجه أبيه، وقال له: لا شأن لك به بعد اليوم، وأنا أذكر لك حقائق واقعة، مشاهدة متواترة. وأنا أختصر لك الطريق في وصفه بالكلمات الآتية: كان متخلّقاً

<sup>1</sup> - هذا جزء من حديث نبوي شريف صحيح؛ انظر: صحيح البخاري 2/ 115 تحت رقم (1442).

<sup>2</sup> - رواية عن سالم محمد الزرقاني سلامة، وعن الشيخ جمعة العباني.

<sup>3</sup> - رواية عن الشيخ النفاقي الزروق.

<sup>4</sup> - رواية عن الشيخ عبد الكريم قبوق.

بالحاسن التي جاء الشرعُ بها، وسَنَّها الشارع الحكيم، فاسترشد منها الزهد في الدنيا، والتقلُّل منها، وعدم المبالاة بها، ولا التحسُّر على ما فاته منها، إلا ما كان متعلِّقاً بطاعة، وإنَّ السخاء والحدود كانا يجريان منه مجرى الدم في الجسد، وطلاقة الوجه والحلم والصبر؛ دأبه وديدته، خاصة مع تلاميذه، والتنزُّه عن دنيء المكاسب سمته، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع، واحتجاب الضحك، وكثرة البكاء، والتفكير والتدبُّل، والابتعاد عن المزاح؛ أخلاقه، واهتمَّ رَحْمَةُ اللَّهِ بِالظَّاهِرِ مِنْ حَالِهِ أَيْضاً، فكان ملازماً للوظائف الشرعيَّة من عُسَلٍ وَتَطْيِيبٍ، وتسريح للحية، وصبغها بغير السواد، وتقليم للأظافر؛ لإزالة الأوساخ والشُّعُور، التي حثَّ الشارع عليها، كما أنَّ الملابس النظيفة البيضاء - خاصة في الأعياد والجمع والمناسبات الدينية - كانت دثاره، كما أنَّه رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ مواظبٌ على قراءة القرآن، وملتمزٌ بأوراده، من تسييح وتَهْلِيلٍ وَتَحْمِيدٍ وَاسْتِغْفَارٍ، وصلاة على المصطفى المختار ﷺ، وكان الشَّيْخُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ كثيرَ الدعاء، ومراقباً لله تعالى في سِرِّهِ وَعِلَانِيَتِهِ، ومعتدلاً في جميع أمورهِ وقضائِها على الله تعالى، ولعلَّ الشَّيْخَ كان يذكر ويتذكَّر، ويُذَكِّرُ غَيْرَهُ مِنْ أبنَاءِ وَأَحْفَادِ وَتَلَامِيذِ وَرُؤَاةٍ وَرُؤَادٍ: أَنَّ فَضِيلَةَ الْإِشْغَالِ بِالْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ طَرِيقُ الْعَارِفِينَ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ لَا فَقْرَ مَعَهُ، وَلَا غِنَى بَعْدَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ رَتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هذا ما كان يرُدُّه دائماً، ويحثُّ تلاميذه عليه. ولعلَّ هذه الصفات جعلته من أفضل القائمين على تهيئة نشء قرينته وشبَّانها، وكهولها لقبول التربية، وذلك بما كان يوجِّهه لأولاده وتلاميذه؛ للاقتداء بسلف الأمة، اقتداءً في العبادة والدعوة والتعليم، وحسن الخلق، وحسن المعاملات، حسب ما ورد في كتاب الله، وبَيَّنَّه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سُنَّتِهِ.

تَعَفُّفه وورعه:

جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، لا تكونوا عيالاً على المسلمين»<sup>1</sup>. هذا دستور الشيخ الفيتوري رحمه الله في تدرسه وتحفيظه، وتعامله مع تلاميذه، فقد كان يبتغي من وراء تعليمه رضا الله تعالى، فكان لسان حاله يقول: وددت أن الخلق تعلموا العلم مني، وحفظوا القرآن عني، ولم يُنسب إليّ من ذلك شيء. فتدبّر - أيها القارئ والمقرئ - تنجّل لك الأمور، واحتسب كما احتسب هذا الشيخ الجليل تُفّر، وابتعد عن الزخارف والسفاسف تنل الأجر الكبير، ولا تقل: أولئك أقوامٌ كيف نصل إلى مراتبهم، فهو كلام الكسول العجول، فمن صبر وصابر واحتمل نال. إن الشيخ الفيتوري رحمه الله - أيها القارئ العزيز - لم يكن بدعاً في هذا الباب، فلا أريد أن أصفه بأوصاف قد تجعلك تظن أنّي أطلب منك تقديسه، إنما هو متبع لا مبتدع، هو مجارٍ لسلوك من قبله من أهل الاستقامة ممن عاشرهم، أو قرأ عليهم، أو ممن سمع عنهم في الكتب، وما روته عنهم الأخبار الصحيحة، والشيخ الفيتوري رحمه الله لم يقصد يوماً من وراء تدرسه للقرآن أن يصلبه إلى غرض من أغراض الدنيا، من مال أو رياسة أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، وإن من ورع الشيخ الفيتوري رحمه الله واحتياطه لدينه أنه كان يضع على يديه حائلاً ساتراً، مانعاً من ملامسة من لا يحل له ملامسته من امرأة أو ما في حكمها، وهذا أمر رأيتُه ووقفْتُ عليه بنفسِي، وعندما تسأله فقد يجيبك بالتعريض، وخاصة أنه في العقدين الأخيرين - أعني فترة الثمانينات والتسعينات - ضيق على أهل الدين والعلماء من قبل الأجهزة الأمنية، ثم إن الشيخ بعد فقد بصره لا يستطيع التمييز بين من هو من أهله وبين الأجنبي، فوضّع هذا الحائل مانعاً للإحراج، ومد اليد ثم الإحجام، وهو أمرٌ كان يسير

<sup>1</sup> - انظر: مسند الفاروق لابن كثير 6/2 تحت رقم (390)، والبيان ص: 54.

عليه الشيخ علي الغرياني رَحْمَةُ اللَّهِ<sup>1</sup>، وأما في باب الصور والتصوير، فقد كان الشيخ يمتنع عن التقاطها له، إلا إن اختلست ذلك من غير علمه، وهذا أمر ثانٍ أضفه إلى ورعه لتعرف قدره، والأمر الثالث امتناعه عن قبول الهدية من تلاميذه، فقد ردّ كثيراً من هدايا تلاميذه<sup>2</sup>، فلم يُردِّ رَحْمَةُ اللَّهِ من إقراءه رِفْقاً يحصل له من بعض مَنْ يقرأ عليه، سواء كان الرفق مالا أم خدمة، ولو كان على صورة هدية، التي لولا قراءة الطالب عليه لما أُهدي إليه، فالشيخ لم يتعجل يوماً الجزاء لعمله، بل كان يدخر ذلك لـ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، فقد تمثل قول الحق في ورعه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ - ١٩]، وامتثل لأمر حبيبه ﷺ: «من تعلم علماً ينتغي به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة»<sup>3</sup>، والشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ كان وقافاً عند شرع الله، متبعاً لسنة رسول الله ﷺ.

<sup>1</sup> - أخبرني الشيخ محمد الفيتوري أن شيخه الشيخ علي الغرياني كان عند وقوعه في مطبات المصافحة على النساء وما شابه ذلك، أنه كان يلفّ يده بطرف من الرداء "الجرد" الذي كان يلبسه؛ خوفاً من الوقوع فيما حذر منه النبي ﷺ، ومنعاً للإحراج الذي يلقاه المصافح.

<sup>2</sup> - ولزيادة الحكم توضيحاً أقول: ذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها إن شرطه واستأجره إجارة صحيحة وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة واحتج من منعها بحديث عبادة بن الصامت أنه علم رجلاً من أهل الصفة القرآن فأهدى له قوساً فقال له النبي ﷺ: «إن سرك أن تُطَوَّقَ بما طوقاً من نار فاقبلها»، وهو حديث مشهور رواه أبو داود وغيره وبآثار كثيرة عن السلف، وأجاب المجوّزون عن حديث عبادة بجوابين: أحدهما أن في إسناده مقالا، والثاني أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئا ثم أهدى إليه على سبيل العوض فلم يجز له الأخذ؛ بخلاف من يعتقد معه إجارة قبل التعليم. انظر: التبيين في آداب حملة القرآن ص: 57، 58. ورأي الشيخ محمد الفيتوري حسن يوافق ما انتهجه الشيخ، فكان لا يبيز للمعلم والشيخ أن يأخذ هدية أو يقبل شيئا من طلابه.

<sup>3</sup> - انظر: المستدرک علی الصحیحین 160/1 تحت رقم (288، 289).

### علاقة الشيخ بأولاده:

علاقته رَحْمَةُ اللَّهِ بأبنائه علاقة صداقة واحترام، كيف تتوقع من علاقة مربِّ ومؤدِّب تخلَّق بالقرآن، فرئى عليه أبناءه، علَّمهم الاعتماد على النفس، والإخلاص والتفاني في الوظيفة، والتغيب والهروب من التكاليف الوظيفية كانت محلَّ استهجان من الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ، وهذه تربية أثمرت ثمارها في أبنائه من بعده، فعضاؤهم مستمرُّ، وإخلاصهم في تدريسهم واضحٌ لكل منصف، يقول الشيخ محمد ابن الشيخ الفيتوري أنَّ علاقته بوالده علاقة صداقة، وأنه يعامله معاملة صديق لصديقه، لقد كان الشيخ يتفقدهم في دورهم وبيوتهم، ويقف على أحوالهم الاجتماعية، فزوجهم، وأرضاهم، من الناحية الاقتصادية المالية، وأما في الجانب العلمي - في فترة دراسة أبنائه - فكان يرأسهم، ويواصلهم، أينما حلُّوا وارتحلوا، لقد تعيَّ المسافات الطويلة والبعيدة؛ تتبعاً لأحوال أبنائه، من ذلك تفقُّده لابنه محمد في دراسته في مدينة قماطة، وفي سفر الشيخ للعلاج لم ييخل عليه أبنائه، فتهافت أبنائه للسفر معه، فكان الاستقرار على مرافقة ابنه الشيخ عبد الرزاق له في علاجه هذا، وبعد رجوع الشيخ من السفر لاحظ أبنائه كسوف باله على فقد بصره، فلم يشاءوا أن يعيش والدهم - في هذه الفترة - مهموماً محزوناً، فرأوا أن يطيبوا خاطره، فاتفقوا على أن يتناوبوا على والدهم، بعد صلاة العشاء، فيقرأوا عليه كتاباً، يتم اختياره مع والدهم بالتوافق، فكان ابنه الهاشمي يقرأ له بعد تكفُّفه كتاب (عمدة الأحكام)، ويتناوب معه على ذلك أخوه الشيخ أبو عجيبة، وبين الحين والآخر تكون وقفات للتعليق، وللتوجيه والمناقشة، وهنا كان الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ يدقُّ على أبنائه في القراءة، فيوجه أبنائه إلى الالتزام بقراءة كتب الحديث وشروحها والفقهاء وحواشيها قراءة لغويَّة، يُراعى فيها سلامة النحو، والوقف والوصل، وأيضاً الأحكام الأخرى من إدغام ومدِّ وتفخيم وترقيق. ومما يبين العلاقة الودودة والقائمة على الاحترام والتحابب، وأنَّ العلاقة بين الوالد وأبنائه مرتبطة برباط شرعي، فقد كان يجمع أبنائه في آخر ليلة من

رمضان؛ إحياءً ليلية العيد، فأمسك أبناءه في إحدى المواسم الرمضانية الشريفة من بعد صلاة عشاء تلك الليلة إلى طلوع الفجر، في رحاب القرآن والتهجد سامرون، وبالقرب من الحق متأنسون، ولقيام هذه الليلة مستنهضون، فحتموا برفقة والدهم في صلاتهم تلك نصف القرآن<sup>1</sup>. ثم هناك جلسة أسبوعية بعد صلاة الجمعة يجتمع فيها أولاد الشيخ جميعهم مع والدهم وتستمر هذه الجلسة إلى صلاة العصر، ومكانها منزل الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ، وقد بقيت هذه السنة بعد وفاة الشيخ إلى يومنا هذا. هكذا كَوّن شيخنا رَحْمَةُ اللَّهِ علاقته مع أولاده، ليسترّ به أولاده من بعده، فتكون علاقتهم بأبنائهم علاقةً أحوالاً، ثم هو يحثّ أبناءه ويشجّعهم على قراءة القرآن، ثم الانتقال إلى العلوم الشرعية واللغوية الأخرى التي تقوم على هذا الكتاب، وربما أوّل لهم عند ختم أحدهم زُبْعاً أو نصفاً من كتاب الله؛ تشجيعاً وتحفيزاً، وأما من الناحية المادية فقد كان الشيخ منصفاً معهم، عاملهم بمقياس واحد في الهبات والعطايا، أقام فيهم وحكم في القسمة بينهم في العقارات المزراع بشرع الله، فلم يحاب أو يفضل واحداً منهم على الآخر، وبعد ذلك لك أن تتصوّر النتائج التي تأتي، فامتثل الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ بذلك الأثر القائل: أعينوا أبناءكم على برّكم.

### مذهبه العقدي والفقهية:

عقيدة الشيخ هي عقيدة أهل السنة والجماعة؛ عقيدة الأشاعرة، عقيدة سليمة نقية صحيحة، وأما مذهبه الفقهي فهو مالكي المذهب، فقد درّسه، ودرّس به، في حلقات العلم التي كان يدرس فيها، ولكنّ التمدُّب بالفقه المالكي لم يجعله يُعْرِض عن الآراء القويّة الراجحة في المذاهب الأخرى، فهو غير متعصّب - كما هو الحال اليوم - بل قد يخرج عن آراء علماء المالكية وعن آرائهم الراجحة، إلى آراء علماء آخرين خارج المذهب، كما ستري في العنوان التالي:

<sup>1</sup> - رواية عن ابنه الشيخ الهاشمي مشافهة.



### اجتهاداته واختياراته:

لم يكن الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ مَتْرَمْتًا، ولا منتطعًا لمذهب الإمام مالك رضي الله عنه بل كان مجتهدًا مختارًا لما يترجّح عنده. فمن اجتهادات الشيخ الفقهية ما حصل بينه وبين ابنه الهاشمي في قراءة الأخير عليه كتاب فقه وحديث، فوجه الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ ابنه إلى أن يقرأ الكتاب بالأحكام الصوتية؛ مراعيًا الإدغام والغنة، والإخفاء والترقيق والتفخيم وغيرها، ولعلك تسأل: أليست هذه أحكامًا خاصة بالقرآن؟ ولكن الشيخ له رأي فقهي وجيه، يميل إلى أن هذه الأحكام ليست وقفًا علاني القرآن الكريم، فهذه الأحكام ليس كما يتبادر إلى الذهن من أنها وقف على القرآن، بل هي عامل مشترك لجميع النصوص العربية؛ شرعيها ولغويها. والاجتهاد الآخر: لما علم الشيخ بما قرأه ووقف عليه، أنّ من مواطن استحابة الأدعية الأوقات الشريفة التي يستحب فيها الدعاء، فهي مظنة الاستجابة، ومنها الدعاء دبر الصلوات المكتوبات، فعمل رَحْمَةُ اللَّهِ بما جاء في الأثر المروي عن أبي أمامة قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَدُبُرِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوباتِ»<sup>1</sup>، وقد تفتن شيخنا رَحْمَةُ اللَّهِ لعلّه ذكرها كثيرون في الاعتراض على دعاء الإمام جهراً عقب الصلوات المكتوبة<sup>2</sup>؛ من أنّ الإمام ربما دخله كبر وعجب، وشموخ واختيال، بتقدمه للإمامة ثم تصدره للدعاء، فكان الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ يكلف من يأنس فيه صلاحاً وورعاً، ويتوسّم فيه خيراً، فيكلفه بالدعاء، ومن كان يكلفهم بالدعاء الشيخين الفاضلين: محمد بن علي عبد القادر، والشيخ جمعة بن مختار العباني. ومن التزامه لعتبة باب ربه

<sup>1</sup> - انظر: سنن النسائي تحت رقم (9856) 9/47.

<sup>2</sup> - أنا- أيها القارئ- ناصح لك أن تطلع على ما ذكره الأئمة الأعلام في هذا الزمان وقبله، فتتلمع ألا تنكر على أحد، ولا تبعد مؤمناً، فاقراً كتاب (سهام الليل) للعلامة الأستاذ الدكتور: عمر مولود، وتحديدًا اقرأ من الصفحة: 58- إلى الصفحة: 66، وانظر إلى رأي وفعل كل من: الشيخ محمد بن الفيتوري، والشيخ الهاشمي بن الفيتوري، والشيخ أبو عجيل بن الفيتوري، وهم من الذين اعتمدوا في الفتيا في البلاد الليبية، وفي مدينة تاجورا خاصة.

تصيده لساعة يوم الجمعة، التي لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها شيئاً إلا استحباب له، ولا تنس الثلث الأخير من الليل فكان رَحْمَةُ اللَّهِ لا يغفل عنه.

وأيضاً من تلك الاختيارات الفقهية: أنه كان يقبض في صلاته، ويشرع أيضاً، وكذلك يقلد رأي القائلين بتجوز الاعتكاف أقل من يوم وليلة، ولو ساعة من نهار، فكثيراً ما أسمع منه رَحْمَةُ اللَّهِ هذه العبارة: «اللهم إني نويت جوار هذا المسجد ونويت الاعتكاف فيه، ما دمت فيه، في هذا الوقت من الصلاة- كالعصر مثلاً- على قول من يُجوز ذلك»، وكثيراً ما يأمرني بأن أقول هذا القول كلما أردت الدخول إلى المسجد؛ لأداء صلاة مفروضة، أو غيرها، ولقد كان يتحرى رَحْمَةُ اللَّهِ الأحاديث الصحيحة<sup>1</sup> التي قد لا تتفق في ظاهرها مع أقوال علماء المالكية وآرائهم الراجحة، فيقدمها على أقوالهم، ويعمل بها، وكأنه يحاكي قول كثير من أئمة المذاهب أن الحديث لو تعارض مع رأيي فاضربوا بقولي عرض الحائط، وقدموا كلام رسول الله على قولي، فكل رادٍّ ومردود عليه إلا صاحب الروضة الشريفة ﷺ؛ لذا فقد كان الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ من المشايخ القلائل الذين يقبضون ويشرعون في صلاتهم في عصره، فأغلبهم -بل جلهم- يُسَدِّل يديه كما هو المشهور من عمل أهل مذهب السادة المالكية وأنصارهم<sup>2</sup>. أزيدك من الشعر بيتاً؛ أنه رَحْمَةُ اللَّهِ كان يقضي السنن من الصلوات، كالركعتين قبل العصر، فيرى أنه إذا انقضى وقت أدائها، فيأخذ بفتاوى غير المذهب، فيقضيها، فمرة رأيت يصلي بعد العصر فسألته عن هاتين الركعتين، فقال: «فاتتني بسبب إقامة صلاة الجنائز، والناس في عجلة من أمرهم، فرأيت لزاماً علي قضاءها، وقد رأيت في ذلك أثراً، فعملت على الآراء القائلة بقضاءها؛ لذا أنا أقضيها». ولم تقف اختياراته عند هذا الحد: فإذا صلى الظهر أو غيره من الأوقات، وأردت الرجوع به إلى مسكنه، سمعت منه قراءة، أو يأمرُك بالقراءة، وكان في هذا

<sup>1</sup> - هذا ما قاله لي ابنه الشيخ محمد مشافهةً.

<sup>2</sup> - ويرى الشيخ محمد بن الفيتوري حسن: أن أدلة القابضين في الصلاة أقوى وأرجح.

مُتَّبِعاً لمذهب غير الإمام مالك رحمه الله. أمّا الإمام مالك فكان يرى الكراهة في ذلك، فقد روي عن ابن وهب قال: سألتُ مالكاَ عن الرجل يُصَلِّي من آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقي من السورة التي كان يقرأ فيها شيء، قال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق، وكره ذلك<sup>1</sup>. وهذا إسناد صحيح عن مالك رحمه الله، إلا أنّ الشيخ الفيتوري رحمه الله يقرأ في الطريق، ولا يرى بأساً في ذلك؛ لانتهاه سماعه ووقوفه على أنّ بعض الصحابة وسلف هذه الأمة العظام رضي الله عنهم أنهم قرأوا في الطريق، فقد روى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقرأ في الطريق، وروى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه أذن فيها<sup>2</sup>، وهنا أريدك أن تقف على اجتهاده واختياره لأقوال غير المالكية، وعدم تعصبه، فإذا قوي الدليل أخذ به، فله درّه.

#### حياته العلمية:

فترة دراسة الشيخ وتحصيله العلمي فترة عصيبة، هي فترة الاستدمار الإيطالي، فترة قلة المال وكثرة العيال، فيا من يتعدّون بانقطاع كهرياء وانقطاع اتصال وانعدام الأمن آن لكم أن تستفيقوا، وتنهضوا كما نهض هذا الشيخ الفاضل العالم المرابي، العامل في أرضه والمختلس من وقته؛ لفهم شرع ربه. درّس الشيخ رحمه الله في أماكن عدة داخل مدينة طرابلس الكبرى، سواء أكان قرآناً أم علوماً شرعية أم لغوية، فدرّس القرآن الكريم وحفظه أولاً على يدي الشيخ أحمد بن رجب في العام 1925 م على وجه التقريب، وفي إحدى مناسبات القرية طُلب من الشيخ قراءة آيات بينات من الذكر الحكيم، ولكنه رحمه الله تلعثم في قراءته، وأزّيج عليه، فرأى أنّ كتابة القرآن في اللوح مرّة واحدة لا يفني بالعرض، ولا يثبت الحفظ في الصدر، فالتزم الشيخ محمد بن رمضان بن غريب، وكتب عليه القرآن مرّة ثانية، وذلك حوالي سنة 1935م، في زاوية الشيخ علي الطشاني<sup>3</sup>، وبهذا استطاع تثبيت القرآن في صدره من حينها، وزاده ثباتاً

<sup>1</sup> - انظر: التبيان ص: 63.

<sup>2</sup> - انظر: التبيان ص: 63.

<sup>3</sup> - سماعاً من الشيخ نفسه.

التزامه وقراءته أيضاً على يد الشيخ عمران خلف الله في زاوية سيدي عثمان بالحميدية<sup>1</sup>، واشتغاله بالقرآن الكريم تديساً وتحفيظاً مكن للشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** حفظ كتاب الله، ورسوخ هذه الحفظ مع تقدّم السنّ في قابل الأزمان، ثم أراد الإمام بأحكام تلاوة تجويد القرآن وترتيله، فأبّجّه إلى أصحاب هذا الفنّ وأهله، ورؤّاده، وأعني المصريّين، فدرّس على شَيْخَيْن جليلَيْن متمكّنَيْن من هذا العلم، فأخذ أولاً عن الشيخ حسن المصريّ في جامع التوغار بسوق الثلاثاء في طرابلس الغرب، أخذ عنه قراءة عاصم برواية الإمام حفص، فكان يدرّس عليه يوم الخميس من كل أسبوع، بعد صلاة العصر<sup>2</sup>، ثم زاد ونهل من الشيخ المقرئ المجرّد عبد الفتاح السيد<sup>3</sup>، فأخذ عنه شيئاً من القراءات وأحكام التلاوة والتجويد المتعلقة بقراءة نافع، وقد تمكّن من هذه القراءة بروايتها: رواية الإمام قالون، ورواية الإمام ورش، فكان يدرّسه في مسجد أبي الغيث (مسجد الزروق) حالياً، ورأى الشيخ أنه بحاجة إلى حصّة إضافية، فكان في بيت الشيخ الكائن قريباً من المسجد الحصّة الثانية، وذلك بعد صلاة العصر، وكان **رَحْمَةُ اللَّهِ** يُكرم الشيخ عبد الفتاح، ويُجلّه ويقدرّه من الناحية المعنوية، والمادية أيضاً، فقد كان يقتطع له أجراً من المال مقابل تدريس الأستاذ عبد الفتاح للشيخ الفيتوري

<sup>1</sup> - رواية عن ابنه الشيخ الهاشمي مشافهة.

<sup>2</sup> - رواية عن ابني الشيخ: أبو عميلة وعبد الرزاق، والحاج الصيد رمضان "الدريزي".

<sup>3</sup> - هو خادم القرآن وعلومه، الشيخ الفاضل عبد الفتاح السيد عجمي، المرصفيّ، القليوبيّ، المصريّ، وهو من قرية صغيرة تُسمّى (مرصفا)، فإليها يُنسب، من مشايخه: الشيخ رفاعة محمد المرصفي شيخ القراء والإقراء بقرية مرصفا، والشيخ عبد الفتاح القاضي، درّس **رَحْمَةُ اللَّهِ** بالأزهر الشريف، بجانب دراسته في بلده، ثم استُعيّر للتدريس بالمدارس الدينية بطرابلس الغرب، فدرّس في مدينة تاجورا، حيث التقى بالشيخ الفيتوري حسن، فتتلمذ على يديه، وفي هذه الفترة ألّف كتابه الجامع في أحكام تجويد القرآن: (الطريق المأمون إلى أصول رواية قالون) من طريق الشاطبية، وقد قرّظه مفتي الديار الليبية الشيخ الطاهر الزاوي بقوله: «وَحُقِّقَا الْقُرْآنَ فِي لَبِيَا فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى مُؤَلِّفٍ يَدْرُسُونَهُ لِإِتْقَانِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَهُمْ؛ لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ إِذَا مَا أُشْكِلَتْ عَلَيْهِمْ إِحْدَى الْمَسْأَلِ، وَقَدْ تَفَضَّلَ الْأَسْتَاذُ عَبْدِ الْفَتْاحِ السَّيِّدِ عَجْمِيِّ الْمَرْصَفِيِّ بِتَأْلِيفِ (الطَّرِيقِ الْمَأْمُونِ إِلَى أَصُولِ رَوَايَةِ قَالُونَ)؛ لَيْسَدَ الْفِرَاغُ الَّذِي كَانُوا يَشْعُرُونَ بِهِ، فَلَهُ الشُّكْرُ، وَنَرَجُو لَهُ التَّوْفِيقَ»، كما عيّن الشيخ عبد الفتاح مدرّساً بالجامعة الإسلامية في مدينة البيضاء بليبيا.

حسن، وهل يعرف الفضل إلا ذوهه؟! بعد حفظه القرآن وإحاطته بأحكام تلاوة كتاب ربه، رأى أنّ ذلك ليس كافياً، ولا مُشبعاً لرغبته الجارحة في تلقّف كلّ ما يدور ويحيط ويخدم الكتاب العزيز، فرأى ما رآه الإمام السيوطي؛ بأنّ هذا الكتاب جامعٌ، إذ: «الفقيه يستنبط منه الأحكام، ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يُذكر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار»<sup>1</sup>. ففي زاوية سيدي أبي راوي -بتاجورا السوق- أخذ قسماً من العلوم الشرعيّة واللغويّة، ولما كان المكان بعيداً عنه، خاصة أنّ في تلك الفترة لا سيارات ولا وسائل نقل، وإنما الاعتماد على الدوابّ أو الدراجات الهوائية لميسوري الحال، فاشترى الشيخ رحمه الله دراجة هوائية؛ ليواصل بها دراسته، كما درّس في سنة 1949م على الشيخ الطاهر الغرياني<sup>2</sup>، فأخذ عنه علوم اللغة، التي كان الشيخ مولعاً بها، فكان يقول: من أراد النحو فعليه بكتاب (قطر الندى وبل الصدى) وشرحه لابن هشام الأنصاريّ، فكان يشيد به دائماً، كما سمعتُ منه في أكثر من مناسبة وجلسة، وقد كان الشيخ الطاهر الغرياني يمتحنه بين الحين والآخر في الجانب اللغويّ، لما علم ولعه باللغة، واهتمامه بها. الشيخ رحمه الله لم يمنعه الكبر في السنّ من العلم، ولا الحياء من دراسته مع من هو أصغر منه كأبنائه، ولعلنا نستطيع القول أنه تزامن مع ابنه الأكبر محمد، وابنه

<sup>1</sup> - الإتقان 16/1.

<sup>2</sup> - هو الشيخ الطاهر بن محمد بن علي بن بوكر الغرياني، التاجوري مولدا ونشأة ووفاة، ولد عام 1889م تقريباً، درس على والده وعلى مشايخ النعاعسة، كما درّس في ميزان على علماء ذلك العصر، ثم تولى التدريس في زاوية أبي راوي بتاجورة، كما تولى التدريس في زاوية المحجوب بمصراتة، وزاوية عمورة في جنزور، تولى القضاء رحمه الله في مناطق شتى من البلاد الليبية، من بينها القضاء في مدينة الريانة، من تلاميذه: أحمد حسين التركي، ومنصور الشريف، عمر العربي الجنزوري، توفي رحمه الله في أكتوبر سنة 1951م، قبل أبيه الشيخ محمد، بسنة تقريباً. رواية شفوية عن حفيده الدكتور فوزي شعبان الغرياني، وانظر أيضاً: كتاب (الشيخ منصور إبراهيم الشريف) للدكتور: محمد سويسي، ص: 79.

المهاشمي أيضاً، في بعض حلقات الدروس في زاوية سيدي أبي راوي. أخذ الشيخ قسطاً من العلوم الشرعيّة على الشيخ محمد علي الغرياني<sup>1</sup> في زاوية سيدي علي الطشاني وفي جامعته أيضاً، بالإضافة إلى أنه درسه عليه في زاوية أبي راوي، كما درس أيضاً على الشيخ محمد الغرياني الملقب بـ(الشيخ الكبير)<sup>2</sup>، والذي كان لغويّاً بجانب إحاطته بالعلوم الشرعية، فالشيخ محمد الغرياني قد يطلب منك إعراباً لآية يشكل ظاهرها على المبتدئين، كما طلب ذات يوم من الشيخ الفيتوري وابنه الهاشمي إعراب آية مشكّلة، وكان السؤال مفاجئاً<sup>3</sup>.

أخذ الشيخ الفيتوري رَحْمَهُ اللهُ جَلَّ فقهِه المالكي، وتمثّل أغلب الآراء في المذهب، وتمكّن من الثّقيا، على الشيخين الفاضلين العالمين: الشيخ محمد أبو القاسم<sup>4</sup>، الذي كان الشيخ كثير الاستشهاد به، وهو شيخ فاضل جليل قلّ من

1- هو الشيخ محمد بن علي بن علي بن بوكر الغرياني مواليد تاجورا 1905م تقريبا وتلمذ على يد والده الشيخ علي الغرياني الأب، وأيضاً أخذ علومه عن مشايخ عصره في ميزران وزاوية أبي راوي، من ذريته الشيخان الفاضلان سلامة وأحمد رَحْمَهُمَا اللهُ، توفي الشيخ علي سنة 1981م ودفن بمقبرة الحومة بتاجورا. رواية شفوية عن حفيده الدكتور محمود بن سلامة الغرياني.

2- هو الشيخ محمد بن علي بن بوكر الغرياني، التاجوري مولداً ونشأة ووفاة، المعروف بالشيخ الكبير، وأغلب الظن أنّ مولده كان بين عامي 1860 و 1870م، درس على والده الشيخ علي بن بوكر، وعلى مشايخ النعاسية، وتولّى التدريس في زاوية أبي راوي بتاجورا، له ثلاثة أبناء: الطاهر، والعربي الذي توفي قبل والده، وهو في بدايته عقده الرابع، وقد حزن الشيخ محمد على موته حزناً شديداً؛ حتى قيل إنه فقد بصره بسبب وفاة ابنه العربي، فلَقَّب إثر ذلك بالشيخ البصير، وابنه الثالث الشيخ عز الدين؛ رَحْمَهُمُ اللهُ جميعاً، وهم من تلاميذه أيضاً، وممن تتلمذ على يديه أيضاً الشيخ المهدي أو بكر النعاس، ومحمد التركي التاجوري، ومن سعة علمه وفضله: أن أباه عليا كان يحضر درسه المخصص لشرح مختصر خليل في الفقه المالكي، توفي الشيخ محمد رَحْمَهُ اللهُ سنة 1370 هـ - 1952م، ودفن بمقبرة الحومة بتاجورا. رواية عن الدكتور فوزي بن شعبان الغرياني، وانظر: ترجمته في كتاب (الشيخ منصور الشريف) للدكتور: محمد سويسي ص: 80، 81.

3- رواية عن الشيخ الهاشمي بن الفيتوري.

4- من أهل الفتيا في قريته، وكان مقدراً مهاباً قولاً للحق توفي رَحْمَهُ اللهُ، من أقران الشيخ علي الغرياني، وهو عمدة في الفقه المالكي، دفن بمقبرة سيدي أحمد الصغير بتاجورا حوالي سنة 1960م، وليس له عقب إلا بنتاً واحدة.

يعرفه، صاحب علم واسع، وأما الشيخ الثاني فهو علي الغرياني<sup>1</sup>، الذي تتلمذ على يديه في مدرسة أحمد باشا بالمدينة القديمة بطرابلس الغرب، فدرس عليه الفقه وأصوله، والشيخ علي الغرياني من أقران وأصدقاء وجلساء الشيخ أحمد أبو القاسم. ومن العلماء الأفاضل الذين دَرَسَ عليهم الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ أَيضاً الشيخ مختار عبد القادر<sup>2</sup> فدرَسَ عليه الشيخ الفيتوري علم الميراث، فتمكَّن منه، فأصبح فرائضياً بامتياز. وأنا طالبٌ منك -أيها القارئ العزيز- أن تلاحظ تدرّجه في السُّلم التعليمي، وأن تشاهد حياته؛ لتجدها حياة مليئة بالحركة، فهي حياة مسلم باحثٍ مجدِّ، يسعى لفهم ما في هذا الدستور الخالد-القرآن الكريم- وما يدور في فلكه، لم يُثْبِتْهُ التقدّم في السنّ عن طلب العلم، ولم يُقْعِدْهُ الفقر وكثرة العيال والأهل عن السعي في التعلّم، ثم في التعليم والتدريس بعد ذلك. الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ كان مؤدّباً ومعلّماً، وهو لا يَفْتُرُ عن طلب العلم والتعلّم، ففي فترة تدريسه القرآن في مدرسة علي الطشاني

<sup>1</sup> - هو الشيخ علي بن علي بن بوكر الغرياني، التاجوري مولداً ونشأةً ووفاةً، ولد بتاجورا حوالي عام 1889م، له ابنان هما الشيخ محمد والشيخ عبد الرحمن، تتلمذ على والده العارف بالله الشيخ علي بن بوكر، كما تتلمذ على يدي أخيه الشيخ محمد، ودرس أيضاً على ثلة من علماء ليبيا في عصره، في زاوية ميزران وغيرها من دور العلم، فتتلمذ على يد الشيخ عبد الرحمن البوصيري، ثم جلس إلى التدريس في ميزران وفي جامع المغاربة بطرابلس، وكان من تلاميذه علماء ليبيا لاحقاً، مثل الشيخ عمر الجنزوري والشيخ عبد السلام خليل والشيخ أحمد الخليلي وغيرهم كثير، توفي رَحْمَةُ اللَّهِ عام 1975م، ودفن في مقبرة الحومة بتاجورا. رواية عن الدكتور فوزي بن شعبان الغرياني.

<sup>2</sup> - هو الشيخ مختار بن أحمد عبد القادر ولد عام 1899م، بتاجورا محلة الحميدية، أحد أشهر العلماء المغاربة الليبيين في عصره، درس الفقه وأصوله، وتولّى القضاء، ونبغ في المواهب، ولمع نجمه مضيئاً في سماء العلم الشرعي، أصبح من أهل الفتيا في زمنه، ولحكيمته وعقله الراجح قام بتولي الفصل في كثير من القضايا الاجتماعية والنزاعات، كالطلاق والزواج والقسمة والدية، فساهم في ردّ كثير من الحقوق والمظالم إلى أهلها، محلّ فتيا وإقامة جلساته العلمية في دكانه التجاري الملاصق لبيته، وما يميّز الشيخ جعله ما تعلّمه من علوم الشريعة فقهاً حياً طبقه في كل النوازل والحوادث كالخصومات، التي حكم فيها، كما أنه خطيب مفعّوه لأكثر من عشرين عاماً، بمسجد القرية المسمّى بمسجد الشطّ بمنطقة الحميدية، من أبنائه الشيخ محمد العماري القاضي الشرعي، ورئيس محكمة طرابلس الابتدائية، ورئيس إدارة التفتيش على الهيئات القضائية. توفي الشيخ مختار في السابع والعشرين من شهر أبريل عام ألف وتسعمائة وستين رَحْمَةُ اللَّهِ (1969م). رواية شفوية عن حفيده الدكتور مختار بن العماري عبد القادر.

القرآنية بتاجورا تمّ نقله إلى التدريس بمدرسة قرآنية للبنات بطرابلس المدينة، ولكنّ الشيخ الفيتوري رفض التدريس بها، فنقل إلى مدرسة أخرى هي مدرسة (المهدي القرآنية)، وهي من مدارس جامع أحمد باشا بطرابلس القديمة، ويا له من نقل وتحوّل، ظاهره بُعْدٌ عن موطنه ومسكنه، وباطنه استفادة من هذا البعد، وصرف ذهن وبال للدراسة، ناهيك عن التدريس، وفي جامع أحمد باشا ومدرسته قسمٌ لدراسة كبار السنّ والمنتسبين غير القادرين على الانتظام في سلك الدراسة، والمدرسة هذه لها مساران في تدريسها؛ أن يكون الطالب منتظمًا، أو منتسبًا، ولكن الشيخ كان منشغلًا بالتدريس؛ الأمر الذي يقف حجر عثرة في طريق انضمامه للمدرسة بصورة الانتظام، رُغم نصح كثيرين له بأن يكون منتظمًا، فقد نصح له الشيخ الدكتور فاتح زقلام، والشيخ الفاضل الصغير المريني، بأن يكون منتظمًا في هذه المدرسة الثانوية، بدل أن ينتسب، ولكنّه آثر الانتساب<sup>1</sup>، وكان كلّما حانت الفرصة له يحضر ويسجل ما فاتته، فأخذ الثانوية العامّة من القسم العام، فنال شرف الحصول على التوجيهيّة، ولم يفتر، ولم يقنع بما تحصّل عليه، فأراد الالتحاق بالدراسة الجامعية بالبيضاء، حيث الجامعة الإسلاميّة، وكلياتها المتعدّدة، فأراد التسجيل بكلية اللغة العربية، وكلف ابنه أبو عجيله باستكمال الأوراق والمستندات المطلوبة، فجهزها له، وانطلق بها رَحْمَةً اللَّهِ مستبشراً مبتهجًا، راغبًا في التعلّم والتحصيل، وعند مقابله مع عميدها، ورأى كبير سنه، صدّه وردّه ردًّا غير جميل، ولا تربويّ، قائلاً: ماذا ستفعل بها وأنت في هذه السنّ؟! وما هي استفادتك منها أو استفادة الطلاب منك؟! إلى غيره من الكلام الجارح، وختم العميد مقابله له بعبارة: (حرام عليك الدراسة)، فرجع كاسفًا بأله، ولكنّ رجاءه بمولاه كبير، فلعلّ في ذلك خيرًا له، هكذا صبر نفسه، وبتسليّة من ابنه الأكبر محمّد، وتوجيهه لتلك العبارة القاسية، وتفكيكه لها بطريقة أدبية رائعة، والشيخ محمد معروف بالتحليل والفتلحة، فقال له: يا أبي لعله أراد أن مكان الجامعة بعيد،

<sup>1</sup> - رواية عن ابنه: الشيخ الهاشمي، والشيخ أبو عجيله.



والبرد في المنطقة الشرقية قارس وشديد، وأن جسمك لا يتحمل ذلك، فحرام عليك تعريض نفسك لتهلكة كهذه<sup>1</sup>، ثم لم يلبث الشيخ أن أراد الدراسة مع ابنه الهاشمي في الأزهر بمصر، ورغب في التسجيل بجامعة الأزهر، في فترة السبعينات، ولكن بسياسة ابنه الهاشمي معه، وأسلوبه الإقناعي التربوي الذي لا يبعد عن أسلوب الشيخ محمد في حادثة الجامعة الإسلامية بالبيضاء، فأفلح هو الثاني في ثنيه عن هذه الرغبة<sup>2</sup>، فالشيخ كبيرٌ في السنّ، والغربة لا يقدر عليها، ثم وجوده في بيئة عربية متفتحة في تلم الفترة، أجزم أنه لن ينسجم أو يتناغم فيها، فلك أن تتصوّر وتتمعّن في هذه الرغبة العلمية الملحة في همة الشيخ رَحْمَهُ اللهُ.

#### شيوخه:

دَرَسَ الشيخ رَحْمَهُ اللهُ - كما رأيت - على نخبة من مشايخ وأعلام ليبيا الأفاضل، الذين لا تزال البلد عالة عليهم إلى يومنا هذا، فمنهم: الشيخ أحمد بن رجب، والشيخ محمد بن رمضان بن غريب، والشيخ عمران خلف الله، والشيخ أحمد أبو القاسم، والشيخ مختار عبد القادر، والشيخ محمد بن علي الغرياني (الشيخ الكبير)، والشيخ محمد بن علي بن علي الغرياني، والشيخ العلامة علي الغرياني، والشيخ الطاهر بن محمد الغرياني، والشيخ عبد الفتاح العجمي المرصفي، والشيخ حسن المصري، وقد انتقل جميعهم إلى رحمة الله قبل وفاة الشيخ الفيتوري، رَحْمَهُمُ اللهُ جميعًا وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء.

#### الشيخ الفيتوري داعية:

إنّ الدعوة إلى الله منهج المصلحين، والأئمة العاملين، والمؤدّبين والمرّبين، لم يغيب عن شيخنا الفيتوري رَحْمَهُ اللهُ هذا النهج، فاقتطع جزءاً من وقته للوعظ والإرشاد، ولتعليم عوام الناس مبادئ دينهم؛ عقيدة وفقهاً وسيرة وسلوكاً، فكان له حضور

<sup>1</sup> - رواية عن الشيخ محمد بن الفيتوري.

<sup>2</sup> - رواية عن الشيخ الهاشمي بن الفيتوري.

لافت في الحال المعدة للجلوس وطَيّ الوقت واستهلاكه؛ في لغو وورق، وما يجزّه ذلك من سمات وأخلاق لا تمت لهذا الدين بأدنى صلة، وتبعد الإنسان عن ربه فلا يبقى بينه وبين خالقه اتصال، ولقد أخبرني بعض أرباب هذه الحال أنه بقدم الشيخ أو بقرب قدمه تُطوى تلك الملاهي وتستر؛ ليحل محلّها الوعظ والإرشاد، فلقد كان من أعدى أعداء شيخنا: لعب الورق وشرب الدخان<sup>1</sup>. ومن وعظه رَحِمَهُ اللهُ أنه كان خطيباً للجمعة مُفَوِّهاً، يعظ في الجُمع والأعياد، وذلك في الجامع القديم بسيدي المصري، فللخطابة دورها في تركيبته الدينية رَحِمَهُ اللهُ، بجانب وعظه بعد صلاة العصر أيام شهر رمضان.

#### تلاميذه:

تتلمذ على يديه كثيرون، وسبب كثرة تلاميذه أنه رَحِمَهُ اللهُ يُحَسِّن للمتعلم، فقد كان رفيقاً بمن يقرأ عليه، مُرَحِّباً به، وهاشماً في وجهه وباشاً، مُحَسِّناً إليه وملاطفاً، ومُعِيناً له على نوائب الدهر، إذا التمس منه جدّاً ونشاطاً، وصبراً، كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ محاكياً لما عليه السلف في جميع أحواله، ممثلاً ما زوي عن أبي هارون العبدي القائل: «كنا نأتي أبا سعيد الخدري رَحِمَهُ اللهُ فيقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ: إنَّ النبي ﷺ قال: إنَّ الناس لكم تَبِعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»<sup>2</sup>، ومن أقطار الأرض الذين توافدوا على الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ فأخذوا ونهلوا من علمه من غير أهل بلده تاجورا خلقٌ كثيرٌ، والذين لا مجال إلى حصرهم وعدّهم، فأخذ عنه من: مدينة البيضاء وسرت ومصراتة وزليتن ومسلاتة، وجمهوريتي تشاد والصومال، طلابٌ رغبوا في التلمذ عليه؛ لِمَا سمعوا من جدّه واجتهاده، فصبروا، وتحملوا، ثم رجعوا إلى أوطانهم بخيري الدنيا والآخرة. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: «من لم يصبر على ذلّ التعليم بقي عمره في

<sup>1</sup> - رواية عن ابنه الشيخ أبو عجيبة، وكذلك ما سمعته منه شخصياً من التشنيع على هذين الفعلين.

<sup>2</sup> - انظر: سنن الترمذي 4 / 327، تحت رقم 2650، وهناك من ضعّف الحديث.

عماية الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا»<sup>1</sup>، وقد صبروا ما أمّلوا. وأما سلوك تلاميذه معه فكانوا بارّين به في حياته، بارّين بأبنائه بعد مماته، مواصلين لهم ومقدّرين، سائلين عن حالهم ومواصلين، ولما رأوا جدّ شيخهم رَحِمَهُ اللهُ أراد كثيرٌ منهم أن يكون محاكياً لاجتهاد شيخه، فقد لمسُ منهم - شخصياً - جدًّا ومثابرةً، وأدباً، خاصة المغتربين منهم. إنّ طلاب الشيخ جميعهم لم يدعوا يوماً الشيخ رَحِمَهُ اللهُ باسمه مجرداً، بل كانوا يقولون: يا شيخنا، أو يا شيخني، أو يا سيدي؛ لأنه أرفع في الأدب، وأرق في الخطاب، فلم ينادوه يوماً من بُعدٍ من غير اضطرارٍ، كخوف وقوعه في مطبّ، أو انحراف عن اتجاه القبلة أثناء صلاته بعد كفتّ بصره رَحِمَهُ اللهُ. قال الشيخ الخراز: «واقراً أخي - أحسن الله إليك - ما ذكره الله تعالى من الدلالة على الأدب مع معلّم الناس الخير ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لا تجعلوا دُعاء الرسول بينكم كدُعاء بعضكم بعضاً ﴾ [النور: 63]، وهذا أصلٌ في تمييز ذي المنزلة»<sup>2</sup>، فأدب الطالب عند سؤال شيخه ومجالسته والاستماع إليه والتلقين منه والتلقّي؛ أمرٌ أكّد عليه الشارع الحكيم، فينبغي لطالب العلم أن يُلاطف الشيخ في مسألته، ويجتنب المراء، فمن حُرِّم الرُّفْق فاته من العلم ما يتحسّر عليه، ومن تعتت في طلب الدليل لقي ما لا يسرّه، وكأني بطلابه يهمسون من حيث لا يُسمعون: اللهم استر عيب معلّم عيّي، ولا تُذهب بركة علمه مني، فنالوا - والحقّ يقال ويشهد - البركة، بعد أن وُفقوا من الله عزّ وجلّ، وهنا لا بدّ من التعرّيج على بعض تلاميذه الذين رأيتُ فيهم جدًّا وعزماً وسمتاً قريباً من شيخهم، التزاماً وحُبّاً في تدريس القرآن، فلا إجازات ولا تغيب، إلا إذا كان في أقصى الأقطار وأقصى الأحوال، منهم فتحي شرف الدين بن حسين بن الفيتوري، وأحمد بن الهاشمي بن عمران خلف الله، هذان من أكثر تلاميذه اللذين قلّ نظراؤهما حسب علمي، وما خبرته منهما ولاحظته، وهذا لا يعني تكاسل

<sup>1</sup> - التبيان ص: 50.

<sup>2</sup> - موسوعة الأخلاق ص: 327.

الآخرين أو تفاعسهم عن أداء واجبهم التعليمي، لا، ففي كُلِّ خيرٍ. سدّد الله الجميع، وألهمنا وإياهم الصواب في اتباع سمت الشفيع ﷺ.

#### تعليمه وتدرّسه:

بعد أن منّ الله على الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ بِحفظ كتابه رأى من واجبه أن يقوم بتعليم ما تعلّمه، فبدأ تدريس القرآن الكريم في زاوية الشيخ علي الطشاني، وتدريس الشيخ وطريقته رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تحفيظ القرآن الكريم سبق التعرّض لها في المبحث الأول، وقد كان تدريس الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ للقرآن الكريم مبكراً، ففي سنة 1958 م بدأ يدرّس في زاوية الشيخ علي الطشاني ومسجده الجامع، ثم نُقل إلى مدرسة المهدي القرآنية. وخوفاً من التكرار والإطالة فستري في المبحث المعنون بـ(حلقاته العلمية) وفي مبحث (إخلاصه) ملامح متعددة لتعليمه؛ سواء أكان قرآناً أم فقهاً أم غيرهما.

#### حلقاته العلمية:

كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ منوعاً لدرّوس العلم التي يرأسها، فكانت فقهاً وحديثاً ولغةً، ورفائق ووعظاً، ومن الكتب التي دوام رَحْمَةُ اللَّهِ على التدريس منها ولازمها فترة طويلة إلى أن ختمها؛ كتاب (بلغة السالك إلى أقرب المسالك) وهو من أمهات الفقه المالكي، وإليه المرجع والمآل في الاختلاف والفتوى، وكان يقرأ له الشيخ جمعة العباني في جامع الشيخ علي الطشاني، كما أنّه رَحْمَةُ اللَّهِ درّس الفقه في جامع سيدي عمر بالحמידية، وذلك بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، فدرّس كتاب (حاشية الصفتي) في الفقه المالكي أيضاً، وفي الحديث تمّ التدريس من كتاب (نيل الأوطار) للإمام الشوكاني، وهو كتاب حديث وفقه، وقد ابْتُدئ في الكتاب نهاية السبعينات تقريباً، وختّم الكتاب حوالي سنة 1994م بعد وفاة الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ، وفي اللغة درّس شيخنا رَحْمَةُ اللَّهِ -وهذا ما حضرته بنفسه- كتابي: (التحفة السنّية في شرح الآجرومية)، وكتاب (قطر الندى وبل الصدى، وشرحه) لابن هشام الأنصاري، وقد

كان الشيخ مولعاً بابن هشام وكتابه، ومعجباً به، أليس هو صاحب العقلية النحوية الفذة في عصره؟! وعندما سُئل الشيخ مرّة عن قول الحق ﷻ: ﴿الله الأمر من قبل ومن بعد﴾ [الروم: ٤] لم يُفعا (قبل وبعد)؟ وقد سبقا بحرفي جرّ. قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: من أراد معرفة حكم (قبل وبعد) فعليه بالقطر<sup>1</sup>. وأما في الرقائق واللطائف فكان كتاب (الترغيب والترهيب من الحديث الشريف) للمندري، فقد كان من دروس يوم الجمعة في جامع الشيخ علي الطشاني قبيل أذان ظهر الجمعة، وقبل ولوج الإمام للخطبة، ومن دون تحلّق، ثم كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يُدرّس في جامع البدي بمنطقة الهضبة، وذلك يوم الخميس بعد صلاة الظهر من كل أسبوع، ومن البدي ينطلق إلى سوق الثلاثاء حيث تتغيّر صفته من مدرّس إلى طالب، حيث يتلقّى علوم أحكام القرآن من أحكام تجويد وتلاوة على يد الشيخ حسن المصري، وفي يوم الخميس أيضاً حوالي سنة 1975م في زاوية الشيخ علي الطشاني، أسّس الشيخ حلقة تعليمة قرآنية فريدة فذة، انتقلت الحلقة إلى الجامع فيما بعد، فبعد أن درّس رَحِمَهُ اللهُ وتفقه في أحكام التلاوة على يد الشيخين: حسن المصري، والشيخ عبد الفتاح العجمي، أراد رَحِمَهُ اللهُ إفادة طلابه وأبنائه ورؤاده، فاقترح تأسيس حلقة مع ثلة من أبنائه وأحفاده وتلاميذه، ومن أحبّ القرآن واشتغل به، فكان من مؤسسيها بداية: الشيخ الهاشمي بن الفيتوري، والشيخ محمد بليون، والشيخ محمد بن علي عبد القادر، والشيخ عبد اللطيف رمضان، مع انضمام الشيخين الفاضلين: محمد الحجاجي<sup>2</sup>، ومحمد النعمي، اللذين تعرّف الشيخ عليهما في زقاق المدينة القديمة بطرابلس، ولما رأى جدّهما وعزّمهما، أمرهما بقراءة القرآن بتأنّ، وبمراعاة الأحكام المشرّعة من قبل أهل هذا الفنّ، التجويد والترتيل، وناصحاً لهما بأن ينضمّا إلى هذه الحلقة<sup>3</sup>، فقبلا ولم يتأخرا، والتزما

<sup>1</sup> - هذا ما أخبرني به ابنه الشيخ عبد الحفيظ.

<sup>2</sup> - توفي الشيخ محمد الحجاجي والبحث في طور التأليف والإعداد، وافاه الأجل وهو في بيت الله الحرام، بعد أداء مناسك العمرة للعام 2016 م - 1437 هـ.

<sup>3</sup> - رواية عن الشيخ جمعة العباي، والشيخ الهاشمي بن الفيتوري.

ولم ينقطعوا، ثم أصبحت محلّ التقاء جميع طلاب القرآن، من زاوية علي الطشاني وغيرها، فيؤمها الطلاب من كل حيّ وبلدة، وقد تمّ الاتفاق على اختيار كتاب (البرهان في تجويد القرآن) للشيخ محمد الصادق قمحاوي؛ ليكون مبيّنًا ودليلاً لأحكام القرآن، وأما الموعد الزمني فيوم الخميس من كل أسبوع، على مدار السنة، ما عدا شهر رمضان، من بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب، فيقرأ أحد الحاضرين موضوعا ما، ثم يشرح ما غمض من جزئيات ذلك الموضوع، أو المقروء عموما، والشرح والتعليق من كل الحاضرين كذلك، فالشيخ واسع الصدر، حلیم، شعاره: (رب تلميذ فاق أستاذه)، ثم بعد الشرح لما يُقرأ، والتعليق، وقيام الحاضرين بالمناقشة، فكلُّ يُدلي بدلوه، ويسأل عما غمض من المقروء، يبدأ الجانب الثاني من الحلقة، وهو الجانب التطبيقيّ لما قُرئ من الكتاب، فيبدأ الشيخ **رَحْمَهُ اللهُ** بنفسه بتطبيق ما قرأ، فكانت **الطريقة**: استفتاح ختمة من بدايتها، يبدأ الشيخ **أولاً** بالقراءة، ومقدار القراءة ثمنا بحسب ترقيم وتقسيم الإمام قالون عن نافع، بضبط الإمام خراز، ثم يقرأ مَنْ عَن يمين الشيخ، ثم الذي يليه ثم... وهكذا، وكلّما أخطأ القارئ في آية، أو قَصّر في إعطاء حروفها حقها ومستحقها من الأحكام، وُجّه بأسلوب لين، وكان الشيخ **رَحْمَهُ اللهُ** ينهى عن الإفراط في الإسراع في القراءة، وهذا الإسراع في القراءة يُسمّيه أهل القرآن (الهدرمة)، وهو محلّ استهجان، فلا يقبلون من الطالب قراءة كهذه. هذه الحلقة يؤمها الطلاب - كما أسلفنا - من كل حيّ وبلدة واقعة في مدينة طرابلس؛ ناهيك بالطلاب المغتربين المقيمين عند الشيخ، ويراعى في التلاوة الوقف كذلك، ومراعاته تكون بتوجيه من الشيخ حيث كلّف أحد رُواد الحلقة بوضع المصحف الشريف على لوحة أو حامله معدة له، ويقوم بالطرق بعضا طرقاً خفيفاً قبل محلّ الوقف بكلمة أو كلمتين؛ ليتنبه القارئ لذلك، فيمثل ويقف، وهكذا يُلمّ الطالب بقدر كبير من الأحكام، فيعرف محالّ الوقف ومكان الابتداء، فيكون لقراءته جمال، ومعنى واضح جليّ.

إنَّ هذه الحلقة لها قدسيَّتها ومكانتها عند الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** منذ قديم، فلا يسمح بالتغيّب عنها، ولا التوقّف، لأيّ سبب كان، وقد بدأ **رَحْمَةُ اللَّهِ** بنفسه قبل غيره، فقَد ابنته وزوجته، فلم يتغيّب عن هذه الحلقة، ولمّا كان المتلوّ كلاماً مُعْجِزاً، مُتَعَبِّدًا بتلاوته، كان من الواجب تحيّر مكان مناسب ملائم له، فمقامه عظيم، وقد فطن لهذا الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ**، فتعبّد به، فلم يكن انتقال الحلقة من الزاوية إلى الجامع لأمر الصيانة أو شيء آخر، بقدر ما كانت عن سبب شرعيّ، حسب ما رأيته وخبرته من الشيخ؛ فلكي يؤجّر ويجازى جزاءً وفاقاً؛ كان هذا الانتقال. قال الإمام النووي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «ويستحبّ أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحبّ جماعة من العلماء القراءة في المسجد؛ لكونه جامعاً للنظافة، ولشرف البقعة، ومحضاً لفضيلة أخرى، وهي الاعتكاف، فإنه ينبغي لكل جالس في المسجد الاعتكاف؛ سواء أكثر في جلوسه، أم أقل، بل ينبغي أوّل دخوله المسجد أن ينوي الاعتكاف، وهذا الأدب ينبغي أن يعنى به ويشاع ذكره، ويعرفه الصغار والعوام؛ فإنه مما يغفل عنه»<sup>1</sup>، وهذا الأمر - أعني حضور نية الاعتكاف في المسجد والجوار - من الأمور التي كان الشيخ محافظاً ومواظباً عليها، وناصحاً بل وأمرأً بها طلابه ورؤاده في أحيان كثيرة، وأما هذا التحلق والجلوس للقراءة فقد كان مسلك السلف من هذه الأمة، وسار على ذلك الخلف، متّبعين لا مبتدعين. قال الإمام النووي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «[فصل] في الإدارة بالقرآن، وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عُشراً أو جزءاً، أو غير ذلك، ثم يسكت، ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأوّل، ثم يقرأ الآخر، وهذا جائز حسن، وقد سئل مالك **رَحْمَةُ اللَّهِ** فقال: لا بأس به»<sup>2</sup>، وقد استمرت هذه الحلقة إلى ما بعد وفاته **رَحْمَةُ اللَّهِ**، وقد أكرمني الله بأن أكون من رؤادها، ولم تنقطع هذه الحلقة إلا في السنوات القليلة الأخيرة الماضية، وفي نهاية القراءة أي الوصول إلى جزء النبأ، تقام

<sup>1</sup> - التبيان ص: 77، 78.

<sup>2</sup> - التبيان ص: 103.

حفلة يتنافس عليها الحاضرون؛ أيهم ينال شرف احتضانها، ثم يستفتحون ختمة جديدة، وهكذا.

إنَّ هذه الحلقات والدروس مجال رحب للمناقشة وللسؤال وللتحاور العلمي، وقد خرج من هذه الحلقات مجموعة لا بأس بها ممن أصبح له نصيب وافر من علوم الشريعة، فاستنار بما قرأ، حتى إذا أوعزته المسألة رجع بفكره إلى محصلته فاهتدى إلى ما يريد. وإن مما استفدته من الشيخ هو طريقة تدريسه للعلوم اللغوية، فقد كان بين الحين والآخر يسألك - وأنت تعرض عليه ما حفظته، أو تراجع عليه محفوظك من القرآن - عن هذه اللفظة أو تلك: ما محلها من الإعراب؟ لم جزمت؟ لم حذف؟ أين الخبر؟ أين المفعول؟ لم تظهر الحركة الإعرابية على آخر اللفظة هذه؟. والحق أن هذه الطريقة لها ما يناظرها في الدراسة الأكاديمية؛ فهناك مقرران دراستيان لغويان، يتناولان هذه التساؤلات ونظائرها، وهما (التدريبات اللغوية) (والتطبيقات اللغوية) ولقد تفتنَّ قسم اللغة العربية بكلية الآداب إلى أهمية هذا الجانب التطبيقي اللغوي، فزاد في عدد وحدات كل مقرر وساعاته التدريسية، وهل نحن إلا عالة على مشايخنا وأساتذتنا في الزوايا والمساجد؟! الذين بغياهم، وبتغيُّنا عن حلقاتهم لم نزد إلا جهلاً، وُعدداً عن اللغة وجوهرها. وما روي عن نشاط الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ فِي** مجال التدريس وحلقاته التعليمية: أن أصحاب المحالِّ التجارية المجاورة لجامع الشيخ علي الطشاني، كانوا يطلبون من الشيخ **الفيثوري رَحْمَةُ اللَّهِ** يقيم فيها دروساً في الفقه والعقيدة، وقد ترى ملأاً من بعضهم بين الحين والآخر، ولكن الشيخ يُصرُّ عليهم؛ مذكراً ومنبِّهاً علناً العُمر قصير، وأنَّ الفرص في التعلُّم قد لا تُتاح لك دائماً، وقد استفاد كثيرٌ من أولئك الناس، وقد سمعتُ منهم كثيراً من المنظومات الشرعيَّة التي حفظوها عن ظهر غيب، وفهموها، وكانوا كثيراً ما يرددونها في حضور حلقات



الدروس التي يقيمها الشيخ محمد بن الفيتوري<sup>1</sup>، فاغتنموا الفراغ قبل الشغل، والصغر قبل الكبر، ولقد روى كثير من أصحابها وروادها أنهم وقفوا على كلامه ونصائحه، واستفادوا من تلك الحلقات والجلسات.

### الإخلاص:

نحن نعلم أن التدريس عموماً حُبّ من المعلّم فيه؛ في هذه المهنة التي ارتضاها، فما بالك إذا كان العلم المدرّس والمادة الملقاة على الطلاب هي من أشرف العلوم، وأنفسها، وأجلها وأفضلها، فالقرآن الكريم ليس بعده علم ولا قبله، والشيخ عندما أحسّ واستشعر هذا القرآن، واستعظمه في نفسه؛ أكبره، ورأى ضرورة الإخلاص في تعليمه وتحفيظه، وتفريغ نفسه لذلك الأمر، فأعطاه جُلّ وقته، فكان يُدرّس من شروق الشمس إلى وقت الظهر، ثم يدخل بيته ليستريح قليلاً، أو ليأكل شيئاً؛ إن كان مُفطراً في ذلك اليوم، ثم ينهض نشيطاً، متوشّحاً بوضوئه، متّجّهاً إلى المسجد - مسجد الشيخ علي الطشاني - ليؤمّ المصلين في صلاة العصر، ثم يرجع إلى داره ليبدأ تدريسه من جديد إلى حين صلاة المغرب، فتدرسه كان صباح مساءً، وأنت اليوم إذا تجوّلت على دور ومراكز تحفيظ القرآن قلّما تجد من يخلص إخلاصاً كالذي سقته إليك عن شيخنا الفيتوري. وبعد صلاة المغرب يبقى الشيخ في المسجد للتلاوة، أو قد يكون مع بعض تلاميذه الذين انشغلوا عن الحضور الصباحي أو المسائي، فيلتحقون به في هذا الوقت؛ إمّا للمراجعة، وإمّا للكتابة، الشيخ لم يتغيّب عن الزاوية التحفيظية، إلا إذا كان في رحلة حجّ أو عمرة، فلا إجازة لأجل فرح أو ترح، ولو كان المتوفّي من أقاربه، فقد فقد أخواته وزوجتيه وابنته، فلم يتغيّب عن تدريسه وحلقاته. إنَّ الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ - كما لاحظتُ ذلك فيه عن قُرب - استوت عند أفعاله في الظاهر والباطن، واستوى لديه المدح والذمّ من العامة، ومن غيرهم، فلم

<sup>1</sup> - هذا ما أخبرني به الشيخ عبد الحفيظ ابن الشيخ، والشيخ جمعة العباني أيضا مشافهة، وهذا ما سمعته من بعض الحاضرين لتلك الحلقات، من أمثال الحاج محمد أبو الميدة، والحاج الصيد رمضان الدرنازي.

يكن يرى أعماله كثيرة، ولا يرى أنه أعطى التدريس والتحفيظ حقّه، بل يرى أنه كان مُقَصِّراً في عباداته وأعماله؛ لأنه يرى أنّ من أولويات المؤدّب والمقرئ والمعلّم؛ الالتزام والاتباع لأمر الشارع، والعمل بما عَلِمَ، وأنّ له أجراً كبيراً، وحظاً وافراً في الآخرة، فالشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ من حَمَلَةِ الْقُرْآن الذين عَمِلُوا بِالْقُرْآنِ، وعملوا بما تَعَلَّمُوا، وعملوا بما وصل إلى أسماعهم من سنن وآثار صحيحة، فوقفوا عند أوامر ربه ونواهيها، ففعلوا المعروف، وأحجموا عن المنكر، واعلم أنّ حملة القرآن المخلصين: «يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كُتُبَانٍ مِنْ مَسْكِ، فَإِذَا أَتَوْا إِلَى الصِّرَاطِ تَلَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ وُكِّلُوا بِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ فَتَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ، وَتَضَعُ التَّيْجَانَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَالْحُلَّالَ عَلَى أَجْسَامِهِمْ، وَتُقَرَّبُ إِلَيْهِمْ خَيْلًا مِنْ نُورِ الْجَنَّةِ، عَلَيْهِ سِرْحٌ مِنَ الْمَسْكِ الْأَذْفَرِ، وَالْعَبْرُ الْأَشْهَبِ، أَلْجَمَهَا مِنَ اللَّؤْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ، يَرْكَبُونَهَا، فَتَطِيرُ بِهَمٍّ عَلَى الصِّرَاطِ، وَيَجُوزُ فِي شَفَاعَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِائَةَ أَلْفِ مِئَةٍ قَدْ اسْتَوْجَبَ النَّارَ، وَمِنَادٍ يُنَادِي: هَؤُلَاءِ أَحِبَابُ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ قَرَأُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَعَمِلُوا بِهِ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، هَؤُلَاءِ أَهْلُ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ أَحِبَابُهُ، مِنْ أَحَبِّهِمْ فِي الدُّنْيَا أَحَبَّهُ اللَّهُ، فَجَاوَزَا الصِّرَاطَ، وَخَلَفُوهُ بِلَا هَوْلَ وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنَ وَلَا غَمٍّ، ..... أَوْلَيْكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ، أَوْلَيْكَ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَوَقَّعَهُمْ وَهَدَاهُمْ، وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ»<sup>1</sup>.

إنّ الصادق هو الذي لا يبالي ولو خرج عن كلّ قَدْرٍ له في قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه، ولا يكره اطلاع الناس على السوء من عمله، ولما صدق الشيخ رَحِمَهُ اللهُ اللهُ أعطاه اللهُ مرآةً أبصر فيها كلّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة، والشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ كان مخلصاً في تدريسه القرآن ووعظه وتعليمه في الحلقات، فيريد مَن أمامه أن يكونوا مجددّين، فلا يرضى بالتعيب والتفلسف، ويرى كلّ ما تقدّم من الأعدار واهيياً، وقد زحزحني في بداية دراستي عليه، عند أوّل يومٍ لالتحاقّي به، فكنت أريد التفلسف من الدراسة في الفترة المسائية، فقال: نحن نُدرِّس فترتين، وعليك

<sup>1</sup> - انظر: بستان العارفين ص: 73.

الالتزام بهذين الوقتين، فقراءة القرآن يجب فيها الرغبة والإخلاص، أما التفلّت والتعلُّل بأسباب واهية فلا محلّ له عندي. جزاه الله عن طلبة القرآن خير الجزاء.

### عبادته وتقواه<sup>1</sup>:

لعلّ أول ما يلقانا من عبادته والتزامه وحرصه وجده؛ المسجد، فهو مستقرّه ومسكنه، مأواه، ووجهته، في حله وترحاله، لا يجد نفسه إلا به، ولا يطمئن قلبه إلا فيه، فإذا افتقدته وجدته فيه، فالمسجد قوت قلبه، وطريقه إلى توحيد ربّه، ف: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاثة مواطن: مسجد يعمره، أو بيت يستره، أو حاجة لا بدّ له منها<sup>2</sup>، ولقد كان الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ كذلك، ممن عمر مسجد الشيخ علي الطشاني سنوات طويلة، زادت عن الأربعين عامًا. قرّن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وجوده في المسجد بالصيام، فكان من العبادات التي أعطاهما الشيخ نصيبًا وافراً في حياته، وجدّول له جدّولا زمنيًا وقيميًا لم يتخلّف، ولما كان شره البطن والفرج شهوة جامحة، كسره بالصيام، الذي لا يقوى على الالتزام به إلا الصالحون، ومنهم الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ الذي كبح جماح نفسه، وأجمها بلحام لم تخرج منه إلا إلى مرضاة الله، وإلى حيث يفتقدها الله فيه، فقد رأى أنّ الأكل والشه، وحبّ الطعام والشراب ليست من سمات العباد، وليست من أخلاق المؤدّبين الصالحين، والمقرّئين الربّانيين؛ لذا فقد كان قلما يفطر في سائر الأيام، فصيام ما ندب إليه النبي ﷺ وسنّه كان من السّباقيين إليه، وأما سائر عامه فقد كان ملازمًا لسنة نبي الله داود عليه السلام، فكان يُفطر يومًا ويصوم يومًا، فيصوم يوم السبت والاثنين والأربعاء، ولا يريد أن يضيع سنة صيام الخميس، فيردفه ليوم الأربعاء، على هذا النحو سار وواظب والتزم، فإذا أحصيت له الأيام التي كان يفطر فيها تجدها أقلّ من الأيام التي كان يصومها. لاحظ الشيخ

<sup>1</sup> - إنما اقتصر في ذكري على ما ظهر أمره من عبادته واستمرّ عليه والتزمه، واشتهر عند الناس به، ولو ذكرت عباداته كلها لما اتسع المقام لها، ولعجزت الذاكرة الحاسوبية عن تسجيلها، ولقصر الورق عن تدوينها والذاكرة عن تخليدها واستحضارها.

<sup>2</sup> - انظر: الزهد لابن حنبل ص: 192، وقوت القلوب 1/ 34.

الفيثوري رَحِمَهُ اللهُ أَنْ خَيْرَ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى مَوْلَاهُ مَا افْتَرَضَهُ عَلَيْهِ، فَأَعْطَى اهْتِمَامًا بِالْعَمَلِ، وَأَعْنَى بِهِ الرُّكْنَ الْخَامِسَ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، أَلَا وَهُوَ الْحَجُّ، فَكَانَ مَعْتَنِيًا بِهِ وَمَتَهَيِّئًا لَهُ، فَقَدْ حَجَّ مَا يَقْرَبُ مِنْ عَشْرِينَ حَجَّةً، وَكَانَ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ لَدَى الْإِنْسَانِ قُدْرَةٌ بَدَنِيَّةٌ وَمَالِيَّةٌ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، فَلْيَكُنْ وَصُولُهُ إِلَيْهِ حَجًّا، وَأَنَا سَأُظَلُّ مَتَرَدِّدًا عَلَیْهِهِ الرِّحَابَ الطَّاهِرَةَ بِفَرِيضَةِ الْحَجِّ»<sup>1</sup>، فَلَمْ يُفْرِدِ رَحِمَهُ اللهُ الْعِمْرَةَ بِسَفَرٍ وَحْدَهَا مِنْفَرَدَةً طِيلَةَ حَيَاتِهِ، إِلَّا مَرَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا كَانَتْ فِي رَمَضَانَ<sup>2</sup>، وَكَانَ فِي عِبَادَتِهِ هَذِهِ حَرِيصًا عَلَيَّ إِردَافَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ، وَمِنْ عَدَمِ الْمَالِ، أَوْ عَدَمِ فَهْمِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيَّ مَعَامَلَتِهِ رَحِمَهُ اللهُ لِمَنْ رَافَقَهُ فِي سَفَرِهِ.

#### أوراده: (من صلاة وقراءة قرآن وتسابيح واستغفار)

حافظ الشيخ الفيثوري رَحِمَهُ اللهُ وَالتَّزَمَ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْدُوبَاتِ، فَأَحْلَاهَا مَحَلَّ الْفَرْضِ وَالْوَاجِبِ، حَتَّى أَصْبَحَ لِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ<sup>3</sup>:

وَلَا تَزُوْدَتْ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةٌ      وَلَمْ أَصَلِّ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أَصُومْ

إِذْ فَقَدَ نَزَلَ رَحِمَهُ اللهُ كَثِيرًا مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمُنْدُوبَةِ مِنْزِلَةَ الْوَاجِبِ، فَوَاضَبَ عَلَيْهَا فِي حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، بَلْ فِي صِحَّتِهِ وَسَقَمِهِ، وَسْتَرَى فِي مَبِیْحِ (مَرَضِهِ وَوَفَاتِهِ) شَيْئًا مِمَّا لَمْ يَحْتِمْ لَكَ، فَكَانَ مَلْتَزِمًا بِالنَّوَافِلِ مِنَ الصَّلَوَاتِ، كَالصُّحَى، وَقِرَاءَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَلَمْ يَسْمَعْ رَحِمَهُ اللهُ بِأَثَرٍ مِنَ السَّنَةِ إِلَّا التَّزَمَهُ، وَامْتَثَلَهُ، فَيَرِدُّ عَلَيَّ مَسَامِعَهُ وَيَقَعُ نَازِرُهُ عَلَيَّ مَا رَوَى عَنْ عِبَادِ الصَّحَابَةِ وَعِلْمَائِهِمْ، فَمِنْ أُرَادِهِ:

أ- رَوَاتِبِ الصَّلَوَاتِ: هِيَ الصَّلَوَاتُ الْمُتَخَلَّلَةُ بَيْنَ الْفَرَائِضِ، وَالتِّي بَيْنَتِهَا السَّنَةُ، وَحَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيَّ أَدَائِهَا، وَلَمْ يَدَلِّ دَلِيلًا عَلَيَّ وَجُوبِهَا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَفِظْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ صَلَوَاتٍ؛ رَكَعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ

<sup>1</sup> - رواية عن ابنه الشيخ عبد الحفيظ.

<sup>2</sup> - رواية عن ابنه الشيخ عبد الحفيظ.

<sup>3</sup> - انظر: قصيدة البردة ص: 239.

صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ صَلَاةِ المَغْرِبِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ صَلَاةِ العِشَاءِ»<sup>1</sup>. فالتزم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذه الرواتب، وزاد عليها ما استنبطه العلماء، وما وقفوا عليه في آثار أخرى من رواتب، كركعتين قبل صلاة العصر، وركعتين قبل الظهر غير المذكورتين في الحديث، وكان يتشدد في الالتزام بها، من ذلك أني حضرت صلاة فريضة جماعة في جامع الشيخ علي الطشاني، وكانت قد حضرت جنازة، فحضر الشيخ وأراد صلاة رواتبه قبل المفروضة، ففوجئ بإقامة الصلاة، فقال مغتاضاً ومعنفاً: ألا نصلي صلاتنا؟! هكذا كان التزامه رَحِمَهُ اللهُ برواتبه، فأنا أقول: فأين المتدبرون؟ أين المجتهدون؟ ولكن لسان الحال يقول<sup>2</sup>:

ليس لي حيلة بتعريف أعمى كنه شيء خُصّت به البصراء

أن تنظر -أيها المسلم- ببصيرتك؛ ذاك أولى وأجدى. كما أنه رَحِمَهُ اللهُ كان ملتزماً بما ظهر في تقسيم السادة المالكية للسور- من حيث الطول والقصر- التي تقرأ في الصلوات المفروضة، فالتطويل مندوب في الصبح والظهر، فقد كَانَ «رَسُولُ اللهِ ﷺ يقرأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ يُطِيلُ فِي الأُولَى، وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ»<sup>3</sup>، والتوسط في العشاء، والقصر في العصر والمغرب، فعن ابن عمر قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يقرأُ فِي المَغْرِبِ: قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ «<sup>4</sup> يقول الحافظ في شرح البخاري: ولم أر حديثاً مرفوعاً فيه التنصيص على القراءة فيها بشيء من قصار المفصل إلا حديثاً في ابن ماجه عن ابن عمر نصّ فيه على الكافرون والإخلاص، ثم ما حملني على ذكر كثير من الأحاديث الصحاح وخاصة في هذا المبحث نفور وضجور كثيرين ممن يصلي إلى قبلتنا ويأتّم بشيخنا الفيتوري، ولكنه- وللأسف- لا يحفظ للعلماء قدرهم، ولا يعرف للسنة احتراماً ولا تقديساً،

<sup>1</sup> - انظر: مسند أحمد 3 / 252 تحت رقم (6086).

<sup>2</sup> - انظر: ربحانة الأرواح ص: 31.

<sup>3</sup> - انظر: سنن البيهقي 2 / 95 تحت رقم (2484).

<sup>4</sup> - انظر: سنن ابن ماجه 1 / 272 تحت رقم (833).

فيجعل العرف هو السائد، والحاكم والفيصل، فلو صرَّحت بما سمعته أذناي من همز ولمز في حق الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ، وفي سمته في صلاته وقراءته فيها لربما كدَّبتُ وأُهمتُ، ولكن حتى ترى ما عليه الشيخ من صواب والتزام بالسنة المصدقة للكتاب فارجع مثلاً إلى كتب الحديث التي توسعت وبينت وسردت آثاراً صحيحة في صلاة النبي ﷺ وما كان يقرأه فيها فسينجلي لك الأمر<sup>1</sup>.

**ب- ومن أوراده رَحْمَةُ اللَّهِ** أيضاً أنه كان كثيراً ما يتعاهد قراءة سورة معينة نصت السنة وصحت الآثار على استحباب قراءتها في أوقات أو أيام معلومة، فمثلاً كان ملازماً على قراءة سورة الكهف يوم الجمعة لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»<sup>2</sup>. وكثيراً ما بحث طلابه وأحابه على قراءتها، ويذكر لهم الآثار الكثيرة المتواترة والمشتهرة المرعبة في قراءتها، وقد يسرد لهم تلك الآثار؛ منها الحديث السابق الذكر، ومنها الأثر الذي يرويه البراء رضي الله عنه: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةً، إِذْ رَأَى دَابَّةً تَرْكُضُ - أَوْ قَالَ: فَرَسَهُ يَرْكُضُ - فَنَظَرَ فَإِذَا مِثْلُ الضَّبَابَةِ أَوْ السَّحَابَةِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ السَّكِينَةُ، تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ أَوْ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ»<sup>3</sup>. وكذلك قراءته لسورتي السجدة والإنسان في صلاة صبح يوم الجمعة.

**ج- الأذكار والتسابيح:** الشيخ كان من الملتزمين لأذكار الصباح والمساء، ولما يُقال عند دخول الخلاء، والخروج منه، وعند الوضوء، ودخول المسجد أيضاً، التزم الشيخ الأوراد والتسابيح الواردة في القرآن وصحيح السنة، فالتزم كثيراً من أذكار الصباح والمساء، من ذلك تسبيحه جهراً وبصوت عالٍ يسمعه جميع من في المسجد بـ« لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»، يقولها عشر مرات، ويجهر بها؛ ليتأسى به تلاميذه وعوام الناس، فقد كان

<sup>1</sup> - انظر: المعجم الكبير للطبراني: ( 9942).

<sup>2</sup> - انظر: شعب الإيمان 437/4 تحت رقم(2777).

<sup>3</sup> - انظر: المسند لأبي عوانة 11/ 143 تحت رقم(4379).

ملازما لها بعد صلاتي الصبح والمغرب، إلى أن توفي رَحِمَهُ اللهُ، فمِنذ سماعه للحديث المروي عن فاطمة والذي سمعته منها أُمُّ سَلَمَةَ: زَعَمَتْ أَنَّ فَاطِمَةَ جَاءَتْ إِلَى نَبِيِّ اللهِ تَشْتَكِي إِلَيْهِ الخِدْمَةَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَقَدْ جَحَلْتُ يَدَايَ مِنَ الرَّحَى، أَطْحَنُ مَرَّةً، وَأَعْجِنُ مَرَّةً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ يَرْزُقُكَ اللهُ شَيْئًا يَأْتِيكَ، وَسَأَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ: إِذَا لَزِمْتَ مَضْجَعَكَ، فَسَبِّحِ اللهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدِي أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الخَادِمِ، وَإِذَا صَلَّيْتَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَقُولِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. عَشْرَ مَرَّاتٍ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَعَشْرَ مَرَّاتٍ بَعْدَ صَلَاةِ المَغْرِبِ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تُكْتَبُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَتُحْطُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ كَعْتَقِ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَا يَحِلُّ لِذَنْبٍ كُتِبَ ذَلِكَ اليَوْمَ أَنْ يُدْرِكُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّرْكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ حَرَسُكَ، مَا بَيْنَ أَنْ تَقُولِيهِ عُذْوَةً إِلَى أَنْ تَقُولِيهِ عَشِيَّةً، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ، وَمِنْ كُلِّ سُوءٍ»<sup>1</sup>.

### تهجُّده:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ينبغي لحامل القرآن أن يُعَرَفَ بليته إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مُفْطِرُونَ، ومُجَزَّنَه إذا الناس يَفْرَحُونَ، وببكاؤه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يحوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. هذا مما لم يجد عنه الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ، ولم يفتر، وإياك أن تحاول تَنِيَه عن ذلك، فلن يُهَادِنَ ولن يستكين، ولن يرضى بقيام الليل والجدِّ فيه، والاستكثار منه؛ بديلاً، فإذا قلت له: ارفق بنفسك؛ فإنَّ المولى كريمٌ، يشكر اليسير، ويثيب على الكثير، فستكون إجابته: يا هذا! أنا أعرف بنفسي، إنَّ جُرْمِي عَظِيمٌ، عصيتُ مولاي بالليل والنهار، ثمَّ يبكي، ويكثر البكاء<sup>2</sup>. رجلٌ جاوز الثمانين، فلم يهن ولم يستكن، وهو في هذا العمر، ولم يفتر

<sup>1</sup> - انظر: مسند أحمد 12 / 221، 222، تحت رقم (27194).

<sup>2</sup> - انظر: التوابين لابن قدامة ص: 115.

عن عبادة خالقه، بل كلما تقدّمت سنّه زاد عمله، وقويت عزائمّه، لم يُقَصِّر يوماً في تلاوته لكتاب ربه أبداً، التزم الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ منذ سنوات طويلة سنّة الاعتكاف في العشر الأواخر من شهر رمضان، فكانت هذه الفترة- في وجهة نظره- إجازة من تدريسه القرآن، فيُريح فيها نفسه، فانظر كيف وصل التلذُّذ في العبادة عنده، وينصح طلابه وزوّاره بالتقيّد بهذه السنة، ويسليهم بمثل قوله: «إنّ البداية فيها صعوبة، ثم تتعوّد بتلك العبادة، وتحبها، فتلتزمها، وإن لم تستطع عشرة كاملة فأقلّه - أي الاعتكاف- كما هو مذهب المالكيّة، يوم وليلة»<sup>1</sup>. كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يخلو بربه في هذه الليالي المباركة، فيقرأ القرآن، ويكثر من النفل فيها، ويتهجّد، فقليلاً ما كان يهجع، وكان يطيل القراءة في صلاته في هذا الوقت، خاصة في الثلث الأخير من الليل، ولا يملّ ولا يكلّ، ولم أره في هذه الليالي يصلي صلاة الكسول، أو العجول.

والسؤال: هل الشيخ التزم التهجد والقيام ليل رمضان أو كان ذلك ديدنه مدار السنة؟ وسأجيبك بأنه في سائر أيام العام كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مُتهجِّداً، مطوّلاً القراءة، خاصّة في النفل، فيرى أنّ ذلك أفضل لقارئ القرآن، فقد جاء عن سلف الأئمة وأعلام مذاهبها المعترية: «أنّ أفضل القراءة ما كان في الصلاة، ومذهب الشافعي وغيره أنّ تطويل القيام في الصلاة أفضل من تطويل السجود»<sup>2</sup>، ولطالما ردّد الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ الأثر القائل: «تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ هُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا»<sup>3</sup>، فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ كان يجدد عهده بالقرآن؛ بكثرة تلاوته آناء الليل وأطراف النهار؛ خوفاً من النسيان، المعبر عنه في الحديث بالتفُّت؛ لأنّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كان يشعر بتفُّت القرآن في آخر حياته، وكان كثيراً ما تستغلق عليه الآيات، فلم يجد وصفة ناجعة، وسبيلاً مُعيّناً؛ من تعاهده

<sup>1</sup> - مشافهة عنه رَحِمَهُ اللهُ.

<sup>2</sup> - التبيان ص: 155.

<sup>3</sup> - انظر: صحيح مسلم 1/ 545 تحت رقم (791).



القرآن في الصلاة، ورأى **رَحْمَةُ اللَّهِ** أنّ التهجد وقيام الليل هو من أولويات معلّم القرآن ومتعلّمه، وهو شرفٌ لهما ما بعده شرف، ومزية لا ينبغي التساهل أو التفريط بها، أو التنازل عنها، فكان **رَحْمَةُ اللَّهِ** كثيراً ما يشدّد على تلاميذه التزام القيام بالليل، وتعهّد القرآن، فأبرأ ذمته اتجاههم بقوله: «يَا مُفَرِّطًا فِي سَاعَاتِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَوْ عَلِمْتَ مَا فَاتَ شَابَهَتْ دُمُوعُكَ الْأَنْهَارَ، يَا طَوِيلَ النَّوْمِ عَدِمْتَ خَيْرَاتِ الْأَسْحَارِ، لَوْ رَأَى طَرْفَكَ مَا نَالَ الْأَبْرَارُ حَارَ، يَا مَخْدُوعًا بِالْهَوَى سَاكِنًا فِي دَارٍ، قَدْ حَامَ حَوْلَ سَاكِنَيْهَا طَارِقُ الْقَنَاءِ وَدَارَ، سَارَ الصَّالِحُونَ فَاجْتَهَدَ فِي اتِّبَاعِ الْأَثَارِ، وَادُّكُرَ بِظِلَامِ اللَّيْلِ ظِلَامَ الْقَبْرِ وَخُلُوِّ الدِّيَارِ، وَحَارِبَ عَدُوًّا قَدْ قَتَلَكَ بِالْهَوَى وَاطْلُبِ النَّارَ، فَقَدْ أَرَيْتُكَ طَرِيقًا إِنْ سَلَكَتَهَا أَمِنْتَ الْعِتَارَ، فَإِنْ فُزْتَ بِالْمُرَادِ فَالصَّيْدُ لِمَنْ أَتَارَ»<sup>1</sup>. والصيد - وللأسف - فاتنا، وما غنمناه لأنّا ما درّيناه.

إنّ التهجد في جوف الليل وخاصة في الثلث الأخير منه لم يتركه الشيخ الفيتوري **رَحْمَةُ اللَّهِ** صيفاً ولا شتاءً، صائماً ولا مفطراً، فكان يراه من الواجبات في حقه، فالزم نفسه به، وكانت مجاهدته لها شديدة، وقد ظفر بذلك وانتصر عليها، وقال لها: لا تكوني مثل فلان كان يقوم الليل ثم تركه<sup>2</sup>. الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** كان ينام بعد صلاة العشاء مباشرة، فقليلاً من الليالي التي كان يسهر فيها، وكيف تكون السهرة يا تُرى؟ كان يسهر بحضور جانب من دروس ابنه الشيخ محمد التي كان يلقيها في مسجد علي الطشاني وزاويته، بعد صلاة العشاء، ونومه كان لإرادته التهيؤ لورده من الصلاة، والاستيقاظ في آخر الليل أو وسطه؛ إذا لم يسبق بهجعة بعد العشاء ثقل وصعب، فيستيقظ **رَحْمَةُ اللَّهِ** حيث يكون الناس نوماً، لما جاء من الفضل في ذلك، قال صاحب قوت القلوب: «والورد الثالث يكون بعد نومة الناس، وهو التهجد الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

<sup>1</sup> - التبصرة لابن الجوزي ص: 213 / 1.

<sup>2</sup> - فقد جاء في مسند أحمد 3 / 364، تحت رقم (6695) أنّ عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكوننّ مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل».

**محموداً** [الإسراء: ٧٩]، ولا يكون التهجد إلا بعد النوم، وتلك النومة هي الهجوع الذي قال الله ﷻ في القائمين به: **«كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون»** [الذاريات: ١٧]... وهذا يكون نصف الليل، فهذا أوسط الأورد<sup>1</sup>، وأنت إذا وقفت على الشيخ الفيتوري في تعبده وتهجده، وجلّ عباداته، رأيت ارتياحاً نفسياً، وانقياداً عجيباً من نفسه؛ لإرضاء ربه، ولو تأملت فيه، وأمعت النظر، وهو واقف في صلاته، بلا شكوى من تعب ولا نصب، لرأيت عالماً مؤدّباً عاملاً، وشاباً نشطاً، وجبالاً لا يتصدّع إلا من خشية الله، ولو دنوت منه لسمعت نحيباً، وبكاءً حارّاً، فقد كان **رَحْمَةً اللَّهِ** شديد البكاء في قراءته، وفي سماعه لسيرة النبي ﷺ، وسيرة أصحابه والسلف الصالح من هذه الأمة، لقد علم **رَحْمَةً اللَّهِ** وتعلّم، فعَمِلَ بما عَلِمَ، لم يُلْهُ مع اللاهين، بل صابر واحتسب، وعلم يقيناً أنّ الإيمان عقيدة وعمل، فهما صنوان لا يفترقان، ف«الإيمان قائدٌ، والعمل سائقٌ، والنفس بينهما حرون، فإذا قاد القائد ولم يسُق السائق لم يُغن ذلك شيئاً، وإذا ساق السائق ولم يُقَدِّد القائد لم يُغن ذلك شيئاً، وإذا قاد القائد وساق السائق اتَّبَعْتَهُ النفس طوعاً وكرهاً، وطاب العمل»<sup>2</sup>. هذه - والحق يقال - كانت سياسته الناجعة مع نفسه الأمارة بالسوء، فلقد قادها وساسها، ولعمري ستنال نفسه ما أملت وصدق فيه قول القائل: «لما عَلِمَ الصَّالِحُونَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ رِحْلَةٍ دَافَعُوا زَمَانَ الْبَلَاءِ وَأَدْجُوا فِي لَيْلِ الصَّبْرِ؛ عَلِمًا مِنْهُمْ بِقُرْبِ فَجْرِ الْأَجْرِ، فَمَا كَانَتْ إِلَّا رُقْدَةً حَتَّى صَبَّحُوا مَنَزِلَ السَّلَامَةِ، نَفَذَتْ أَبْصَارُ بَصَائِرِهِمْ بِنُورِ الْغَيْبِ إِلَى مُشَاهَدَةِ مَوْصُوفِ الْوَعْدِ، فَتَعَلَّقَتْ يَدُ الْأَمَالِ بِمَا عَايَنْتْ بِوَاطِرِ الْقُلُوبِ، وَأَخْمَصُوا عَنِ الْحَرَامِ الْبُطُونِ، وَعَضُّوا عَنِ الْآثَامِ الْجُفُونِ، وَسَكَبُوا فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ الدُّمُوعَ، وَتَمَلَّلُوا تَمَلُّمِ الْمَلْسُوعِ، اسْتَفَادَ قُلُوبَهُمْ زَمَانَ التَّلَطُّفِ، ثُمَّ حَتَّتْهَا سَائِقُ التَّعَسُّفِ، فَكَلَّمَا أَلَاخَ لَهُمُ الرَّجَاءُ نُورَ الْوَصَالِ طَبَّقَ ظِلَامُ الْخَوْفِ سَمَاءَ الْأَعْمَالِ، فَهُمْ فِي بَيْدَاءِ التَّحْيِيرِ

<sup>1</sup> - قوت القلوب في معاملة المحبوب 1/ 41.

<sup>2</sup> - مفتاح الأفكار 3/ 13.

يَسْرَحُونَ، وَمِنْ بَابِ التَّضَرُّعِ لَا يَبْرَحُونَ، وَخُزْنُهُمْ أَوْلَىٰ مِمَّا يَفْرَحُونَ، فَإِذَا عَمَّهُمُ الْعَمُّ فَبِالدُّكْرِ يَبْرَحُونَ، رَفَضُوا الدُّنْيَا فَسَلِمُوا، وَطَلَبُوا الْآخِرَىٰ فَمَا نَدِمُوا، يَا بُشْرَاهُمْ إِذَا قَدِمُوا وَعَنِمُوا»<sup>1</sup>.

### تلاوته للقرآن الكريم وورده فيه:

الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ لم يفتر ساعة من نهار أو ليل عن تلاوة كتاب الله ﷻ، ففي آخر حياته لا أقول أنه ترك التسبيح أو التهليل، ولكنه قلل منهما، ومن غيرها من الأوراد التي كان يخصّص وقتاً لها، والتزم بالقرآن، كان يقرأ في الليل إلى أن يرى أنه بدأ يختلط عليه الأمر، بأن يخلط آية عذاب أو وعيد ويختمها بتبشير أو وعد مثلاً، حينها كان يتوقف؛ لعلمه بأنّ النوم حلّ، وأنّ لنفسك عليك حقاً، ولتيقننه بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم كره القراءة للناعس؛ مخافةً من الخلط<sup>2</sup>، والشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ يقرأ واقفاً وحالساً ومتكئاً ومضطجعاً، والله لو رأيته في سنيه الأخيرة لقلت له: ارفق بنفسك، فإذا صلّى المفروضة ورجع إلى مسكنه؛ ليقيل أو ليستريح، سمعت منه قراءة، أو قد يأمرك بالقراءة، مستمعاً لك ومنصتاً، ومتتبّعاً لتلاوتك ومصحّحاً، وأما إذا سألت عن وقت ختمه للقراءة التي استفتحها، وأراد أن يختمها، فله في ذلك مذهبٌ لطيف، واجتهاد محمود، واتباع لمن سبق، فقد روى ابن أبي داود عن عمر بن مرة التابعي قال: كانوا يحبّون أن يُختم القرآن من أول الليل أو من أول النهار، وعن طلحة بن مصرف التابعي قال: «من ختم القرآن آية ساعة كانت من النهار صلّت عليه الملائكة حتى يمسي، وآية ساعة كانت من الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح»<sup>3</sup>. وقد قرأتُ على الشيخ أكثر من مرة ولاحظته مع تلاميذ آخرين، أنّه رَحِمَهُ اللهُ يتحصّن وقت أول الليل لختم تلاوتها، التي أراد أن يختمها، وكان قد يختم قراءته بعد أداء صلاة الصبح؛ عملاً بهذا الأثر، وغيره من الآثار، وكثيراً ما كان يحضنا

<sup>1</sup> - التبصرة ص: 201.

<sup>2</sup> - انظر: التبيان ص: 79.

<sup>3</sup> - انظر: سنن الدارمي 4 / 2180، تحت رقم (3518).

على أتباع هذا الأمر في ختم القراءة، وروى الدارمي في مسنده بإسناده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح، وإذا وافق ختمه آخر الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُمسي»<sup>1</sup>.

**خلاصة ذلك أن الشيخ رحمه الله من الملازمين لقراءة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، يقرأ في الصلاة بطوال السور، خاصة صلاة النفل، كالرواتب والتهجد والتراويح، ويتحيز الظروف والأوقات الطيبة، والمناسبات القدرية؛ ليقراً فيها أكثر ما يمكنه أن يقرأ، قراءة متأنية مرتلة، وبعيداً عن التكرار فقد مرّ بنا في وقوفنا على مطلب (تهجده) شيئاً كثيراً عن تلاوته للقرآن الكريم، وتعبده بكتاب ربه، والتزامه به، من قراءة في: صلاة، أو غيرها، لا يملّ رحمه الله ولا يفتر.**

#### مكانته وثناء أهل الفضل عليه:

الشيخ حسين القماطي<sup>2</sup> كان من المثني على الشيخ الفيتوري رحمه الله، فقد أعجب به، وذلك في زيارة الشيخ لابنه محمد في بلدة قماطة، ذكره بمحامد كثيرة للشيخ محمد، وشهد له بالصلاح والعلم والفضل. وكان الشيخ الطاهر الغرياني يجلّه ويقدره، ويوسع له في المجلس، ويدعوه إلى بيته، وكذلك كان الأمر مع الشيخ علي الغرياني، وممن تأثر لموته وآلامه فراقه الشيخ العارف زغوان، الذي كان يذكره بخير لطلابيه، وقد أرشد بعضاً منهم ووجهه إلى القراءة والتلمذ على يدي الشيخ الفيتوري رحمه الله، فلم يعرفه أحد في حلّ أو ترحال إلا أحبّه، وأبهره صبره ومثابرتة، وعبادته، وتدريسه، وجرأته على قول الحق؛ فلقد كان رحمه الله سيّفاً من سيوف السنة، قائماً

<sup>1</sup> - انظر: سنن الدارمي 2184/4، تحت رقم (3526).

<sup>2</sup> - الحسين بن عبد الله بن محمد بن عطية القماطي، ولد عام 1882 م، حفظ القرآن الكريم على والده الشيخ عبد الله، ثم انتقل إلى الزاوية الأسمرية، فأكمل تعليمه اللغوي والشرعي، من مشايخه الشيخ محمد القط، رجع الشيخ إلى مسقط رأسه حيث كُلف من قبل والده -أولاً- بنظارة زاوية القراقر، ثم كُلف رسمياً من الجامعة الأسمرية بإدارتها، والتي كانت تُسمّى زاوية الشيخ عبد الله، ثم باسم زاوية الشيخ حسين، وهي زاوية القراقر نفسها، ثم أصبح إماماً لمسجدها الجامع، ولي الشيخ القضاء أيضاً، توفي الشيخ عام 1970 م. رواية عن حفيده الدكتور: خالد محمد القماطي.

بنصرها والذب عنها، وقمع المخالفين لها والردّ على المبتدعين فيها، وما رأيتُ أحدًا يغضب في شيء كغضبه الذي كان يغضبه للسنة إذا نيل منها، فجزاه الله عن الإسلام وأهله أفضل الجزاء، وجعل نصيبه من رضوانه وافر الأجزاء، وجمعنا وإياه تحت لواء مصطفىاه ﷺ.

### مرضه ووفاته:

وبعد حياة مليئة بالكدّ والتعب، فقد آنّ للفارس أن يترجّل، وحلّ وقت الرحيل، ودنا الفراق، فليس من ذلك مقيل، ففي يوم الجمعة الثامن عشر من شهر يونيو سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف (18 - 6 - 1993 م)، بعد أن جاوز الشيخ الثمانين، مرض أثناء صلاة الجمعة، ولم يستطع صلاة رواتبه واقفًا، بل وقع من طوله، وخزّ مغشيًا عليه، ولم يستسلم فحاول الوقوف والنهوض ثانية، واستقرّت حالته يومها قليلاً، ثم في اليوم التالي انتكس ثانية، وزاد مرضه، وثقل عليه، وفي صبيحة يوم الأحد غرة محرّم الحرام سنة أربع عشرة وأربعمائة وألف لهجرة المصطفى ﷺ (1-1-1414 هـ)، الموافق للعشرين من شهر يونيو لسنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف (20-6-1993 م) اشتدّ عليه الحال، فغُرف المنقلب والمآل، وكان حاضرًا جميع أبنائه، والشيخ عبد اللطيف رمضان صديقه وأنيسه وجليسه في حلقات دروسه، كان حاضرًا أيضًا، وتأسّيًا بحديث المصطفى القائل: «اقرأوا على موتاكم يس»<sup>1</sup>، أي عند ساعة الاحتضار، فقد كان الشيخ عبد اللطيف يقرأ سورة يس على الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عندما عرف من ظاهر حاله أنّ المنية حضرته؛ رجاء أن يخفّف عنه بها، ولعلّ الله عزّ وجلّ أن يدفع عمن قرئت عند احتضاره أهوال الآخرة، فهي تدفع ميتة السوء كما جاء في كثير من الآثار حيث قرأ الصحابة على رفقاءهم هذه السورة المُعمّمة بالخير في الدنيا والآخرة<sup>2</sup>. فالشيخ حاله تشتدّ ونزعه يقوى، فأصبح بين الصّحو والإغماء، يفيق ثم

<sup>1</sup> - انظر: السنن الكبرى للنسائي 9/ 394، وفي صحيح ابن حبان (فصل في المختصر) رقم (3002) 7/ 269.

<sup>2</sup> - انظر: سنن أبي داود 5/ 40 حديث رقم (1356)، ومسنّد أحمد تحت رقم (17243) 7/ 261.

يُعْمَى عليه، فإذا أفاق يقول: «دعوني لأصلي»، ولا يرضى بصلاة إيماء ولا إشارة؛ بل يصِرَّ على صلاة مكتملة؛ بركوعها وسجودها وقيامها، وكان ابنه حسين<sup>1</sup> يتحايل عليه، فيأتي بإناء فسيح صلب، فيغطي به بعباءته، ويقول له: هذه الأرض يا أبي فاسجُد عليها؛ رفقاً بحاله، ولعلَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فطن إلى هذه الحيلة، فيصرَّ على الوقوف، وهنا يحاول الشيخ محمد ابنه الأكبر ثنيه كلَّما أراد الوقوف، فيبقيه في حجره، ويمسك ابنه الهاشمي بإحدى يديه، ويحين الأجل، فتخرج روحه الطاهرة إلى بارئها، وهو أعلم بها، وأرحم، وأكرم وأنعم، ويفجع الخبزُ محبَّيه؛ من أهل بيته، وتلاميذه، وجيرانه، وينزل عليهم نزول الصاعقة، ولكن ليس لأحد من الأمر شيء. ثم يُغَسَّل في ظهره يوم الأحد، في بيته القديم الذي طالما كان مستقره ومخدعه، ومصلاه وتهجده، وينقل إلى جامع سيدي علي الطشاني قبيل صلاة العصر؛ ليُصَلِّي العصر فيه، ثم الانتقال بعدها إلى المقبرة، فانظر وتدبَّر؛ مَنْ كان يؤمُّ المصلين لأداء الصلاة لسنوات طويلة كثيرة، ها هو اليوم يُصَلِّي عليه، ثم ينقل جثمانه الطاهر فوق الأكتاف بعد صلاة العصر، في جمع مهيب مهيل؛ ليُصَلِّي عليه صلاة الجنازة في مقبرة سيدي أحمد الصغير بالبلدة نفسها، شارع سيدي علي الطشاني، ويؤمُّ المصلين للصلاة عليه الشيخ محمد بن علي عبد القادر؛ رفيقه وصديقه وحليسه، في حلقات العلم بجامع علي الطشاني، بتكليف من الشيخ محمد بن الفيتوري؛ لعلمه بالحجة والمودة التي جمعت بينهما سنوات طويلة، وربما يُقال: «إن المصباح قد انطفأ، فقالوا: نزيده زيتاً، فقلت لهم: كيف؟! إذا كان المصباح روحاً قد استوفت أجلها!»، ولكن شاء صاحب المصباح ومالكه عَجَلِكْ إطفاءه برهة، ثم أذن ﷺ أن يُوقد بعده قناديل أخرى، كانت هدى، استنارت بها طلبة العلم والقرآن، فكما ودَّع هذا المحلَّ وهذه البلدة منذ قرون الشيخ سيدي علي الطشاني، فبقي المكان بعده منارةً للعلم والقرآن، إلى أن أتى سيدي الشيخ الفيتوري رَحِمَهُ اللهُ، فحمل الراية، وأكمل المسيرة، فسار بالمركب

<sup>1</sup> - هذا ما رواه لي ابنه حسين الذي ظلَّ هو وإخوته في ذلك اليوم ملازمين له؛ إلى أن انتقل رَحِمَهُ اللهُ.

والركبان، وأتار السبيل للقاصدين والراغبين، ها نحن اليوم نلاحظ استمرار هذا العطاء؛ ببركة الشيخ الفيتوري رَحْمَةُ اللَّهِ، فوجد علماء ودعاة في هذا المكان من صُلب الشيخ ونسله، ومؤدّبون عمّروا هذا المكان، وغيره من الأمكنة، على طول الفترات القريبة الماضية، والحالية، فأحيوا وأقاموا شريعة الله، وذُئبوا عنها، فله الحمد أولاً وآخراً، فنسأله ﷺ أن يُبارك في ذُرِّيَّة هذا الشيخ الفاضل، والمربي، والعالم، سيدي الشيخ الفيتوري حسن رَحْمَةُ اللَّهِ، وأن يعين أولاده وأولادهم على إكمال نهجه، حتى يصل إلى الشيخ ثوابٌ وجزاء لا ينقطع، وتحقق رغبة كانت لديه، في أن يعمّ هذا الدين وأحكامه كُلَّ بيت، وأن يُرى القرآن ماشياً في كل سبيل، قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعُو له»<sup>1</sup>. قال أهل العلم في تفسير الحديث: أنّ عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد الثواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها، فإنّ الولد من كسبه، وأولاد شيخنا كانوا علماء دعاة، تنوّرت بهم كثيرٌ من البصائر، ولهم آثارٌ في المجتمع قلّما ينكرها أو يجهلها أحدٌ، فدرّسوا في المساجد، وأمّوا المسلمين فيها، وحلقاتهم التعليمية شاهدة ناطقة منذ أكثر من أربعين عاماً أو يزيد، فخرّجوا أجيالاً تلتها أجيال، وتلاميذهم اليوم هم أساتذة وأطباء ومهندسون وقضاة وقانونيون و... في شتى المجالات هم موجودون حاضرون، وأبناء الشيخ وأحفاده إذا سألت عنهم وعن مواعيد محاضراتهم وحصصهم وأماكن تحفيظهم؛ يجيبك البعيد قبل القريب، فيأليهم تُشدّ الرحال في طلب العلم إلى ساعتنا هذه. إنّ الفراغ الذي تركه الشيخ الفيتوري حسن رَحْمَةُ اللَّهِ في جامع سيدي علي الطشاني لم يملأ - في وجهة نظري إلى يومنا هذا - ولكن لا يخلو الأمر من ظهور بذور زرعها شيخنا رَحْمَةُ اللَّهِ باقية إلى يومنا هذا، فإذا جالت بك الطريق، ودخلت تاجورة، فاسأل عن زاوية الشيخ علي الطشاني، وعن مسجد الجامع العتيق، جامع الشيخ علي الطشاني، وتعمّد الزيارة

<sup>1</sup> - انظر: صحيح مسلم 3/ 1255 تحت رقم (1631).

مغرب يوم الأحد أو الأربعاء أو الخميس؛ لتصلي المغرب هناك، فستجد ملمحاً مما ذكرته لك، وستجد نفحات من عبق سيدي الشيخ الفيتوري حسن رَحْمَةُ اللَّهِ، تستشقيها في ذلك المكان الطاهر، المعمور بذكر الله وحلقات العلم، فلقد أنال أولاده وبلدته وتلاميذه ما يبقى إلى آخر الحشر. قال ابن رجب الحنبلي رَحْمَةُ اللَّهِ: «وقد يحفظُ الله العبدَ بِصَلاحِهِ في وِليهِ وولِدِ وولِدِهِ، كما قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: إِنَّهُمَا حُفِظَا بِصَلاحِ أَبِيهِمَا... إِنَّ اللَّهَ لِيحْفِظُ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ وولِدَهُ وولِدِ وولِدِهِ، وقَرِيْبَتَهُ التي هو فيها، والدُّوَيْرَاتِ التي حولها، فما يزالونَ في حَفِظِ اللَّهِ وسِترِهِ»<sup>1</sup>.

وخاتمة هذا المبحث رأيتُ لزاماً عليّ أن أكون ناقلاً لما سمعت، محرراً لما أُلقي إليّ من أولاده، ورؤاده، وتلاميذه، فلو تركتُ لِنَفْسِي الكلامَ لما وجلت ولا وجمت عن ذكر ماثره ومثالبه، وما شملني به من عطف ورعاية؛ منذ أتيته وأنا ابن السادسة عشرة، لقد كانت حياته وعظماً لنا وعبراً، ولعله اليوم أوعظ منه حياً لنا، وبملازمتي للشيخ فترة ليست بالطويلة وبتبعتي لِسَمْتِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ -وحتى لا أطيل عليك أيها القارئ- فإني رأيتُه يتمثل ويحاكي قول الزاهد العابد<sup>2</sup>:

صَبْرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ مِنِّي سَجِيَّةً	وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَيَّ الصَّبْرِ
وَكُنْتُ أَحْيَى مَا دَامَ عَوْدُكَ يَابِساً	فَلَمَّا اسْتَوَى وَاحْضَرَ صَبْرْتُ مَعَ الْيُسْرِ
لَعَمْرُكَ لَوْ ذُوَقْتَنِي ثَمَرَ الْغِنَى	أَذْفَتَكَ مَا يُرْضِيكَ مِنْ ثَمَرِ الشُّكْرِ
فَإِنْ نِلْتُ مَا يُغْنِي مِنَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ	أَنْتَلْتُكَ مَا يَبْقَى إِلَى آخِرِ الْحَشْرِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الْغِنَى	وَأَنَّ الْغِنَى يُحْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْفَقْرِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْبَحْرَ يَنْضُبُ مَاؤُهُ	وَتَأْتِي عَلَيَّ حَيْتَانِهِ نُوبُ الدَّهْرِ
وَمَا لَكَ يَوْمَ الْحَشْرِ زَادٌ سِوَى الَّذِي	تُقَدِّمُهُ قَبْلَ الْمَمَاتِ إِلَى الْحَشْرِ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِداً	نَدِمْتَ عَلَيَّ التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَدْرِ

<sup>1</sup> - انظر: تفسير ابن رجب 1/575، 576.

<sup>2</sup> - انظر: مجموع القصائد الزهديات، والأبيات لأبي العتاهية 2/186.



جعلنا الله من المستغفرين لا من النادمين المهموزين في البيت الأخير، ورزقي وإياكم التذكر والاستغفار على ما أسلفنا من صغائر الذنوب وكبائرها، ورزقي وإياكم حُب العلماء والأتقياء والصالحين، ومجالستهم، ولا حرمننا الله من بركتهم ومن خالص دعائهم، ويرحم الله عبداً قال: آمين.

### الخاتمة والتوصيات:

إني رأيت نتائج في هذا البحث أهمها:

- أن الحق عزَّ وجلَّ يحيي دينه في بلدٍ ما برجل، وقد يعجز البلد كاملاً أن يحيي ديناً، أو يقيمه.
- الدراسة الأهلية أنتجت لنا ثروة علمية تمثلت في كثير من العلماء والدعاة والمؤدِّبين.
- وأما التوصيات: فأوصي الباحثين بتتبع آثار العلماء وترجمتها، ترجمة علمية بعيدة عن الميل، أو التحامل.

### المصادر والمراجع

- الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع ونشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ - 1974م.
- إحياء علوم الدين، للغزالي أبي حامد محمد بن محمد ت 505هـ، طبع ونشر: دار المعرفة - بيروت.
- بستان الواعظين ورياض السامعين، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ت 597هـ، تحقيق: أيمن البحيري، طبع ونشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الثانية، 1419 هـ - 1998م.
- بغية الباحث عن زوائد مسند ابن الحارث؟، للحارث بن محمد البغدادي، ت 282هـ.
- التبصرة، لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي ت 597هـ، طبع ونشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986م.
- التبيان في آداب حملة القرآن، لمحيي الدين يحيى بن شرف النووي ت 676هـ، تحقيق: محمد الحجار، طبع ونشر: دار ابن حزم - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1414 هـ - 1994م.
- تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، للسمرقندي نصر بن محمد ت 373هـ، تحقيق: يوسف بديوي، طبع ونشر: دار ابن كثير - دمشق، الطبعة الثالثة، 1421 هـ - 2000 م.
- الجامع الكبير (سنن الترمذي)، لمحمد بن عيسى ت 279هـ، تحقيق: بشار عواد، طبع ونشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1998 م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير، طبع ونشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

- ربحانة الأرواح في مولد خير الملاح، للشيخ علي أمين بن محمد سيالة، ت 1376 هـ - 1956م، طبع ونشر: دار الطالب - طرابلس، 1999م.
- الزهد، لابن حنبل أحمد بن محمد الشيباني ت 241هـ، وضع حواشيه: محمد شاهين، طبع ونشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999 م.
- السنن الكبرى، للبيهقي أحمد بن الحسين ت 458هـ، تحقيق: محمد عطا، طبع ونشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.
- السنن الكبرى، للنسائي أحمد بن شعيب ت 303هـ، تحقيق: حسن شلي، وشعيب الأرنؤوط، طبع ونشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001م.
- السنن، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت 275هـ، تحقيق: محمد عوامة، وتعليق: محمود خليل، طبع ونشر: دار القبلة، ومؤسسة الريان، الطبعة الثانية، 1425 هـ - 2004 م.
- سهام الليل، دراسة حول مشروعية الدعاء في الإسلام، للدكتور: عمر مولود عبد الحميد، طبع ونشر: الهيئة العامة للأوقاف وشؤون الزكاة، الطبعة الأولى: 2010م.
- الشيخ منصور إبراهيم ساسي الشريف، للدكتور محمد بشير سويسي، طبع ونشر: دار الفسيفساء - طرابلس، الطبعة الأولى، 2012 م.
- صفة الصفوة، لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي ت 597هـ، تحقيق: أحمد بن علي، طبع ونشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: 1421 هـ - 2000م.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، لمحمد بن علي الحارثي ت 386هـ، تحقيق: عاصم الكيالي، طبع ونشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، 1426 هـ - 2005 م.

- كتاب التّوايين، لعبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، ت 620هـ، طبع ونشر: دار ابن حزم- بيروت، الطبعة: الأولى 1424هـ/2003م.
- مجلة الوثائق والمخطوطات، العددان الثالث عشر والرابع عشر، 1997، 1998م، من بحث (العلم والعلماء بأوجلة)، والعددان: الثالث والعشرون والرابع والعشرون، 2007-2008م.
- مجموعة القصائد الرّهُدِيّات، لعبد العزيز بن محمد السلّمان ت 1422هـ، طبع ونشر: مطابع الخالد للأوفسيّت - الرياض، الطبعة: الأولى، 1409هـ.
- المستدرّك على الصّحيحين، للحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري ت 405هـ، تحقيق: مصطفى عطا، طبع ونشر: دار الكتب العلميّة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ - 1990م.
- مسند الدارمي المعروف ب(سنن الدارمي)، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن ت 255هـ، تحقيق: حسين الداراني، طبع ونشر: دار المغني- السعودية، الطبعة الأولى، 1412 هـ - 2000 م.
- المسند الصّحيح، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت 261هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع ونشر: دار إحياء التّراث العربي - بيروت.
- مسند الفاروق عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأقواله على أبواب العلم، لابن كثير إسماعيل بن عمر القرشي ت 774 هـ، تحقيق: إمام بن علي، طبع ونشر: دار الفلاح- الفيّوم - مصر، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م.
- المسند، لأحمد بن حنبل الشيباني ت 241هـ، تحقيق: مكتب البحوث بجمعية المكنز الإسلامي، طبع ونشر: جمعية المكنز الإسلامي - دار المنهاج، الطبعة: الأولى، 1432 هـ - 2011 م.
- معجم البلدان الليبية، للشيخ الطاهر أحمد الزاوي، طبع ونشر: مكتبة النور- طرابلس، الطبعة الأولى، 1388هـ- 1968م.

- مفتاح الأفكار للتأهّب لدار القرار، لعبد العزيز بن محمد السلّماني ت 1422هـ.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوي محمد بن عبد الرحمن ت 902هـ، تحقيق: محمد عثمان، طبع ونشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1405 هـ - 1985م.
- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المعروف بالحطّاب ت 954هـ، طبع ونشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة، 1412هـ - 1992م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي إبراهيم بن عمر ت 885هـ، طبع ونشر: دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.
- نوارد الأصول في أحاديث الرسول، للحكيم الترمذي محمد بن علي ت 320هـ، تحقيق: إسماعيل عوض، طبع ونشر: مكتبة الإمام البخاري، الطبعة: الأولى، 2008 م.

#### الروايات والمسموعات:

- مقابلة شخصية متكررة مع الشيخ جمعة بن مختار العباني، بمنزل الباحث، وبمزرعة الشيخ جمعة، وبمنزل الشيخ جمعة، سنة: 1995، 1999، 2004، 2016، 2017م.
- مقابلة شخصية مع الحاج الصيد رمضان، في جامع الطشاني، سنة 1995م.
- مقابلة شخصية مع الحاج حسين بن الفيتوري حسن، في بيته، سنة 1994، وسنة 1995م.

- مقابلة شخصية مع الحاج محمد أبو الميدة، باحة جامع علي الطشاني، 1994م.
- مقابلة شخصية مع الشيخ الهاشمي بن الفيتوري حسن، في بيته، شهر نوفمبر، سنة 2016م.
- مقابلة شخصية مع الشيخ عبد الحفيظ بن الفيتوري حسن، في محله التجاري الكائن بالقرب من مقبرة سيدي أحمد الصغير، شهر نوفمبر، 2016م.
- مقابلة شخصية مع الشيخ عبد الرزاق بن الفيتوري حسن، في زاوية (اقرأ) لتحفيظ القرآن الكريم، بمنطقة إسبان: تاجورا، شهر يناير، 2017م.
- مقابلة شخصية مع الشيخ عبد اللطيف رمضان، في باحة جامع علي الطشاني، في شهر يونيو، سنة 1993م.
- مقابلة شخصية مع الشيخ محمد بن الفيتوري حسن، في بيته، شهر أكتوبر، سنة 2016م.